روائى المدينة الأول

عمر حاذق

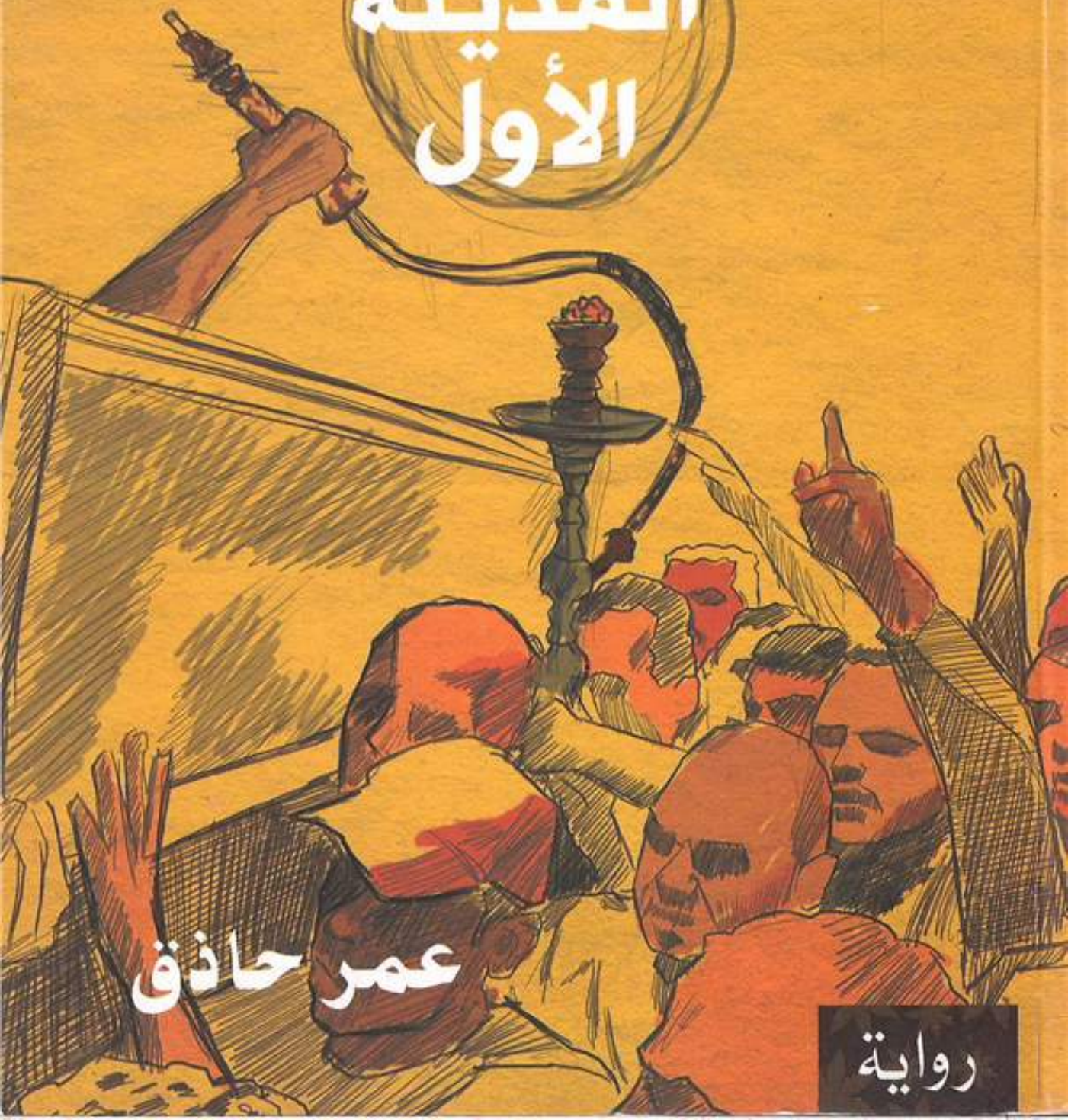

رواية

روائي المدينة الأول

رواية

عمر حاذق

يالها من سماء! أبدًا أبدًا لم أرَ السماء بهاتين العينيْن، عينيْ رجل مستلق على ظهره، محمولا على أعناق الرجال، ووجهه مفتوح على السماءِ. صحيح أن الكفن يحجب عن عينيّ الرؤية، لكنني في هذه المرحلة من مفارقة الحياة والدخول في ذاتي، بدأتُ أكتشف إمكاناتي التي لم أكتشفها من قبل. صار بصري "حديدًا"، فإذا بي أرى كل شيء عبر الكفن. لحسن الحظ لم يحملوني في تابوت. الأكف والأكتاف تهدهدني فأزداد تسربًا وانبثاثًا في زُرقة العصر الحليبية. كانوا يجرون بي كأنهم يستكثرون عليَّ ما أسبحُ فيه من "سماوية".

بعدها كان الأمر فظيعًا، وضعوني قرب القبر، وبدأ رجل أبله، عريض القفا، طويل اللحية، عظيم الكرش، يعظهم بي، كما لو كانوا سيركلونني إلى الجحيم. حشروني في لحد ما أضيقه وأفظعه، ثم بدأ الظلام يعبّئني جاروفًا بعد جاروف.

لأنني توغّلتُ أكثر في ذاتي، أصبحتُ أسمع أيضًا، بل أسمع أصوات النجوم التي تتحرك في الفضاء، وأزيز جيوش الدود في قبور قريبة وبعيدة داخل ساحة المقابر. لم أكن قد تعودتُ الظلام، فقط سمعتُ نشيج أمي ودعواتها. توالت الخطوات المبتعدة إلى باب المقابر. وهذا أمر غريب لأن

سمعي تغيّر، ستسألني: كيف؟ دعني أفكر في طريقة لأشرح لك، فأنت ما زلت من أهل الدنيا.

ليست المسألة أنني أسمع أصواتًا من أقصى الفضاء، أو من جوف الأرض، لا، بل المسألة أنني أسمع الأصوات الحقيقية، أي أسمع نشيج أمي ودعاءها، رغم أن كثيرين يبكون ويدعون لي فوق، فقط صوت أمي هو الذي سمعتُه دون ضجيج الآخرين. أنا واثق أن أصواتًا سمعتُها كثيرًا من قبل، تدعو الآن لي وتبكيني، لكني لا أسمعها إلا وشيشًا مهلهلًا.

مضوا جميعًا. حتى أمي التي انتظر صوتها أقصى ما وسعه الانتظار، مضى معهم أخيرًا.

لكن اسمع، هناك أمر آخر ربما لا تفهمه، ربما يغضبك، ومع ذلك لا مفر لك منه. نحن الموتى لا نشتاق لكم أبدًا، لا تغضبْ رجاءً. لا أقول إننا لا نحبّكم، أو إننا نحتقر أحزانكم ومهرجانات دموعكم من أجلنا، صدقني، لا، ودون أي نية سيئة، بمجرد أن تهيلوا علينا أكوام التراب، تصبحون ظلالًا تائهة في الذاكرة. نشعر أنكم أشخاص التقينا بهم وأحببناهم يومًا ما في طفولتنا البعيدة، التي جفّتْ ذكرياتُها تحت شمس الموت.

طيب. مضت الخطوات وذهب صوت أمي ولم أشعر نحوه إلا بأنني كنت أعرفه وأذكره بين الأصوات الأخرى، أذكره فحسب، كما هو، وبحياد تام.

* * *

قبل أن تتلاشى الخطوات، ولأن عهدي بالحياة قريبٌ، بحثتُ عن طريقة لتغيير وضعي قبل أن تتخدّر أطرافي ومفاصلي. كيف أعالج هذا اللحد الرهيب الذي يحضنني حضن عاشقة؟ قبل أن أسرح في التفكير سمعتُ طرقًا خفيفًا في مكان ما من اللحد. لم أقدر على تحديد الموضع. نفضتْني شبكة عروقي كأنها أسلاك كهرباء. استمر الطرق وامتد على جوانب اللحد كلها في وقت واحد. هذا إمكان آخر لن تفهمه فأنا أسمع الصوت ممتدًا مفروشًا في اتجاهات شتى. ويكون للصوتِ جُرْمٌ كالذي شعرتُ به وقتها، ذبذبة غليظة زحفتْ على جبهتي.

"افتح يا ابني". لم يكن لساني قد اكتشف إمكاناته ليسأل الصوت من هو؟ وكيف أفتح؟ "افتح يا جدع إنت"، بدأتُ أسمع أصواتًا أخرى: "افتح قبل ما غمّشي ونسيبك تدوّد". هنا ألهمني اللهُ أن أنطح بجبهتي مساحةَ اللحد المواجهة لها بالضبط، فمن هنا منبع الصوت أولًا، وهذا هو الموضع الوحيد الممكن نطحه ثانيًا، بعد أن أصبح جسدي كتلة لحم كبيرة واحدة محبوسة في الكفن.

تلك النطحة الصغيرة كانت كافية.. انفتحتْ للخارج فتحة كالثقب، تدفقتْ منها أصواتهم إليّ وعامت بي حتى أخرجتني. تعاونوا ضاحكين في نزع الكفن عني، ولمّا وقفتُ رفعوا رءوسهم إليّ.. كنت شاهقًا. كل شيء

في هذا العالم أصغر بمقدار النصف. نزعتُ قطعة من الكفن ولففتُها حول عورتي. لاحظت أن رأسي يكاد يلمس سماء مدينتنا، وهو سطح الأرض الطبنية.

"ماتخافش كلنا بنبقى كده، وخلال أيام بنصغر وناخد حجمنا الطبيعي. تعالى نتمشّى شويّة". بنشاط بدأتْ حواسي تكتشف إمكاناتها. كان الهواء حولنا بنفسجيًا فاتحًا يميل أحيانًا للوردي. وكانت الأشياء كلها تتدرّج ألوانها بين هذين اللونين. مشيتُ معهم صامتًا أتفرّج.

هناك دكاكين ومقاه صغيرة. بسرعة لمحتُ شيشة كريز وكنت مشتاقًا إليها. أعجبني دخانها الأرجواني وبدا طبيعيًا مفعمًا بنكهة الكريز الطبية. حاولتُ أن أتكلم ولم يكن لساني قد انحلّ، فأشرتُ إليها، فضحكوا ومالوا بي إلى المقهى. جلستُ أنا على الطاولة وهم على الكراسي التي كانت صغيرة عليّ. أول من بدا أنه سيصبح صديقي هو صبي الشيشة الذي كان ابنًا لأسرة ثرية. فهّموني أن كل مواطن هنا يظل جسده كما كان قبيل موته، الصبي يبقى صبيًا والعجوز عجوزًا.

مع الأنفاس الأولى حلّ الدخان لساني فسألتُ عن هذا الصبي الذي لا يشبه صبيان الشيشة البؤساء. أوضح لي أحدهم قانونًا إضافيًا هنا: تكون على ما أنت عليه أو ما حلمتَ أن تكونه قبيل الرحلة إلى هنا. حكوا لي باختصار أن الصبي مات في حادث مع أمه وأخته، ولكنهما خافتا أن تثقبا اللحد حين طرقوا عليهما فماتتا.

الصبي الجريء فتح بسرعة فأنقذوه، وكان يحب الجلوس مع أبيه على المقهى ويتخيل أشكالًا كثيرة لدخان شيشة والده الذي منعه من تدخين نَفَس واحد، هذا القلق الميتافيزيقي جعله يحسد صبي الشيشة في المقهى ويتمنّى عمله، فأصبح صبي الشيشة هنا.

* * *

كان كلامنا يسبح ويكاد يملأ الفراغ حولنا، فاقترحوا أن نسكت لأن الكلام في مدينتنا إذا كثُر خَنَقَ. هنا يقضون وقتًا طويلًا صامتين فيتأمّلون ويعيشون كما شاءوا. بعضهم يحمل مسبحة ليسبّح في صمت. هؤلاء هم الأغبياء، لأنهم يمكنهم التسبيح دون مسبحة. وبلا حدود، لكنهم أسرى لعاداتهم الفوقانية.

انتظرنا حتى هبط الكلام إلى الأرض وتفككت الحروف، ثم حكى لي أحدهم عن امرأة ظلت تثرثر عن خيانات زوجها حتى خنقها كلامها وماتت، فأعادوها إلى لحدها وأغلقوا عليها. كانت رسالتها في حياتها الأخرى أن تثرثر وتُحسنِن على زوجها الذي تضاعفتْ خياناته لها بعد رحيلها.. حقدتْ على حريته تلك.

المسكينة كانت من طائفة الرائين، وهم الذين يكتشفون في ذواتهم إمكانًا غريبًا: أن يروا ما شاءوا من العالم الفوقاني في أحلامهم هنا. ينطقون باسم الإنسان أو الموضوع المطلوب قبل النوم، فيرونه من نافذة الأحلام. لا ليل ولا نهار هنا، بل هو الفضاء البنفسجي المنتشر في فضاء مدينتنا.

طائفة الصاعدين يعرّفوننا مواقيت الشروق والغروب. هؤلاء لهم عيون أخرى غير الأحلام. اكتشفوا طريقًا لقبر مهجور لم يُغلقْ بإحكام. يتسللون إليه ويرفعون غطاءه، فإذا كان الليل في الأرض خرجوا وتجوّلوا حذرين ونظروا من فوق سور المقابر، وأخذوا يتفرّجون على العابرين، فإذا شوهد منهم أحد بعد خروجهم من عالمنا، مات من فوره وسقط في عالم الأرواح. وهناك يمكنه الاتصال بالبشر والانتقام ممن أغضبوه في الحياة الفوقانية.

الطيبون من هؤلاء الصاعدين، كلّما طلعت الشمس فوق علّقوا برتقالة في سقف ساحتنا الكبيرة، وحين تغيبُ الشمس يأتي أحدهم ويدفن البرتقالة في كومة طين صغيرة في أرضنا، حتى يأتيَ آخر قبيل الفجر ويعلقّها في السقف.

قاطعتُ صبي الشيشة الذي أصبح صديقي، وقلت له إن هذه الأرواح لا بدَّ أنها أرواح الموتى التي ظل البشر البدائيون يتّقون شرها، فكان أهل الميت يسترضونها بالقرابين ليتّقوا شرها، كما تقول أساطير الشعوب البدائية التي حكاها لي زبون مثقف فوق. نظر إليّ الصبي واستغباني. أي أساطير؟! إنها الحقيقة الواضحة التي نعيشها هنا ونراها، ورآها البشر القدماء بفطرتهم المتبصرة قبل أن تطمسها الحضارة. حكى أن بعض هذه الأرواح بعد أن تنتقم ممن أغضبوها، تسامحهم إذا شعرت بصدق ندمهم واسترضائهم.

لم تستمر طويلًا مسامراتي مع صبي الشيشة، فقد هزّتْ مدينتَنا كارثةٌ، بدأ الصاعدون يسقطون في عالم الأرواح باطراد مخيف. نحن لا نبالي

بمن دفنونا هنا وأكملوا حياتهم فوق، لكننا نحزن حزنًا لا حدود له على الموتى من رفاقنا الصاعدين.

إنهم موتانا ومطر حزننا. وهم أذكانا وأحرصنا، ومع ذلك لا ينجون من لمحة يضربهم بها عابر سبيل أمام المقابر ليلًا، أو يستفز أحدهم الفضول فيمضي وراء جريمة أو معركة ويسهو عن الحذر، ويُشاهَد خارج المقابر، فيسقط في عالم الأرواح. منذ الخسارات الأخيرة، نبَّهْنا على الصاعدين بالحذر، وأوصيناهم بالصمود جماعةً، في أطرافها أهل الحنكة والحصافة وفي قلبها أهل الحميّة والغرارة.

* * *

الليلةَ صعدوا معًا، ولم يعد منهم إلا مواطنة واحدة، عادت بقطة، مكروبةً، مخموشةً. فزعنا إليها. هذه القطة التي لم يفطن لها أحد كانت سبب خساراتنا. كان المنظورون منا ينظرهم بشر فيسقطون في عالم الأرواح. لذا لم يأخذ أحد من الصاعدين حذره من قطة. الليلةَ، حين أوشك الصبح أن يتنفس، رصدوا ما حول المقابر فلم يكن غير الظلام والسكون، السكون المغزول بنسيج الغيْلة. انطلقوا خارج سور المقابر مطمئنين، غير أن هذه المواطنة كمنت خلف السور، خائفةً تترقب ما يكون.

القطة انسربتْ فجأةً من تحت سيارة على الرصيف المواجه لسورنا. بلمحة انفجرت أجساد الجماعة وسقطوا. مواطنتنا "اللبوة" انسحبتْ إلى القبر المهجور وراحت تزيّق كتزييق الفئران، حتى طمعت القطة وجرَتْ وقفزتْ من فوق السور متسللةً للقبر المهجور الذي واربت صاعدتُنا بابه، ولحظةَ دسّت القطةُ رأسها هبَّت مواطنتنا ولم تكن تخاف أن تُرى، لأنها في أرضنا، سحبتْها من عنقها ودقَّتها في جدار القبر أربع دقات فهمدتْ.

سكتتْ مواطنتنا الصاعدة لأن كلامها بدأ يملأ الفضاء حولنا. تأملتُ القطة الممددة على الأرض.. كم بدت كبيرة! الحق أنني أنا الذي ضؤل

جسدي حتى انتصف كما في مدينتنا الصغيرة. تفرق الناس يبكون موتانا، وهكذا سقط مطر كثير في هذه الليلة.

مطرُ حزننا يصبب الجسد فلا يبلّله، لكنّ كل ما بداخلك يسيل بعضه على بعض حتى يشعر باطن كفيك بملمس الأرض حين تمشي عليها، وليس باطن قدميك، وحتى تحُكَّ جسدك بيدك، فتجد بقايا الخروف التي كانت تتحلل على الأرض، قد عَلقت من يدك على جسدك، فتنفضها كي لا تكمل تحللها على جسدك.

تظللتُ من المطر ما أمكنني حتى انقطع، وحين طلع النهار ونزلت الصاعدةُ وعلقت البرتقالة في سقف الساحة، وقفتُ تحتها ليجف ما بداخلي ويعود له قوامه. ثم رجعتُ للقطة الممددة من ليلة البارحة، إنها الآن ناهضة نصف نهوض، وقد أخذت تصغر شيئًا فشيئًا. اللعينة تتهيأ لتحيا حياتنا، وهذا أمر خارج عن الناموس، لأنه لم يناد عليها أحد منا في الهنيهة التي يمكن المناداة خلالها. فإذا مضت هذه الهنيهة انهدّت قوى الروح واندثر الجسد، فكيف تنهض هذه اللعينة الآن؟

قطعتُ نفسي عن التفكير وذهبتُ للمقهى، لأنني مع الشيشة ينشغل فمي فأفكّر بصمت. وهذا أسلم من التفكير بفم حر ينطق بالأفكار فتتكالب الكلمات حتى تكاد تخنقني.

* * *

ارتباكٌ ما دهمني. كان قد مرّ أمامي بطيئًا كسلحفاة عجوز.. هذا المنظور الجانبي لوجهه: الخد الغائر ونصف الرأس الأصلع مع شريط رفيع من الشعر الأبيض ممتد بعرض الجمجمة. هذه المشية المطمئنة أيضًا ذكّرتني بشيء قديم أعرفه لكن نسيته. تركتُ الشيشة وقمتُ أتبعُه حتى بلغ الكنبة العتيقة، اتكأ على مسندها ورفع طرف الجلباب وجلس بتمهلٍ بدا أنه يستلذه.

نظر إليّ لكنّ لم يرني. تداخل في نفسه مثل سلحفاة وسكَن. مررتُ من خلفه وحفرتُ داخلي أكثر. نعم هذه الكنبة أعرفها، كنبة جدّي في الحارة القديمة. ملامحه لا أذكرها إلا تقريبًا لكن ما أقربها لملامح أبي الآن، بل ما أشد تطابقهما لو عُمِّر أبي بضع سنين! هذان الخدان الغائران، هذه النظرة الحولاء المكفهرة، هذا الانتظار الراضي بالموت.

رأيت صورة فوتوغرافية لجدّي على هذه الكنبة منذ سنين. وها هو لا يزال عليها كتلة خالصة من الغَوص في قاع الذات. الآن رأيتُه، رأيت ملمحه الذي وعتْه ذاكرتي علامةً عليه، إنه انحراف في بؤبؤ عينه اليمنى. فحين ينظر أمامه يتوسط البؤبؤ عينه اليسرى، وينحرف بؤبؤ العين اليمنى جانبًا، كأنما سيقفز خارج الوجه، مع جحوظ العينين وانفتاح خفيف للفم.

هذا إنسانٌ يعاين موته عيانًا. ظلت الكنبة والجلباب مغلّفَيْن بروح الثمانينيات حين كنت طفلًا. أما أبي فبدأتْ هذه التضاريس تنحت وجهه الآن، ولم يزل في الخامسة والستين، إنها النظرة التي تكسو وجه جدي الجالس أمامي.

الخيط يكرُّ من بكَرَة الذكريات... كم كان أبي يتمنّى لأبنائه أن يكملوا "علامَهُم"، وأن يصبح أحدهم أستاذًا جامعيًا أو كاتبًا تظهر صورته في جريدة كبيرة كالتي تفرشها أمي على مائدة المطبخ. كم خيبتُ أمله! فشلتُ في تعليمي وصرتُ صبي جزار بالحارة المجاورة حتى استأجرتُ جزارة أخرى. اشترى يومًا كيلو كرز، وحين رآني أكثر منه زجرني: "اعمل حساب إخواتك".

في عيد أضحى بعيد، أخذني مع إخوتي لزيارة قبر أبيه. قال لنا يومها إنها سُنة وإنه لا ينبغي أن يشعر الجد أن ابنه نسيه. ضعفتُ لحظتها فقررتُ: بعد أن يموت أبي سآخذ أطفالي لزيارة قبره كل أضحى، حتى لا يستوحش حين ينساه الناس. كان قبلها بأسابيع قد ضربني بحزامه، وكان الإبزيم الحديد قد ترك ورمًا أزرق في ساقي.

* * *

إنها المرة الأولى هنا التي أذكر فيها أحدًا من أهلي، لأجتهد في تصوّر الحَوَل الذي سيصيب عين أبي في الأعوام القادمة. تلك الليلة، وبعد إنزال البرتقالة شعرتُ بفضول ما تجاه أسرتي. ليس هكذا بالضبط، بل شعرت بفضول تجاه ما فعلتْه أسرتي بشأني بعد أن رحلتُ، ذهبتُ لصديقي وشيّشتُ حتى أصبح صدري حبة كريز كبيرة، سألتهُ أن يدلني على أحد الرائين ليرى لي أهلي. قال لي: "شرّفني بكرة الصبح، هتلاقي مودموزيل بوسي". "طب أصاحبي مش عاترضى عني بقى وتلف لي حتة حشيشة؟" فأعاد قَسَمَه قسمًا عظمًا بأن هذا الصنف غير موجود في العالم التحتاني.

أكيدٌ أنني لا أصدق كلامه المهذب هذا، لكن ما باليد حيلة. ذهبتُ إلى جذور شجرة الجميز الكبرى في وسط المقابر. بدأ الليل منذ قليل والمكان براحٌ لا يزال. توسدتُ جذرًا. جاء عم علي الحضراتي. أراد أن يسرق غفوة قبل أن يصل المواطنون فيطردوه. فور أن ينام، يشتد شخيره ويتراصّ في الهواء، ثم يتراكم على أوجه النائمين حوله، فيصحون ويجرون إلى الهواء الطلق. أصبح مشردًا، يقضي الليل والنهار بين إغفاءة ونهوض متفزّعٍ قبل أن يخنقه رُكام شخيره.

بدا هذا المواطنُ وحيدًا ممرورًا فأحببتُ أن أسخر منه. قلت له إن يدي اشتاقت لذبح أي شيء في مدينتنا، أي شيء، لكن الخبيث لم يفزع، فهنا لا

جروح ولا كدمات. "طيب اتكل على الله وادبحني" قال بتهكم، فغيرتُ مجرى الكلام وشرحتُ له أنني أشتاق لبيع اللحوم كما لا بدَّ أنه يشتاق لبيع الخضروات. تماديتُ وقلت إنه لولا أنني اشتهرتُ هنا بأنني كاتب روائي لفكرتُ في العمل بمهنة الجزارة. تململ عم علي الذي بدا أنه كره كل شيء، وحكى أنه افتقد مهنته هنا، لكن المواطنين ضحكوا عليه: "وهانودّي الأكل فين يا مفتّح انت؟!" صحيح، فهنا لا فتحات لأحد إلا في وجهه.

* * *

صحوتُ ولم تكن البرتقالةُ أشرقت. مشيتُ أبحث عن تلك القطة اللعينة. هكذا أمرني حدسي. ثم جاءني ذلك الهسيس فعرفت أنها تخمش شيئًا. لما قربتُ توقفتُ. توجهتُ إليها من وجهة أخرى، وخطوتُ وئيدًا. كانت تخمش جدار لحد قديم، ولما مضت، نظرتُ متأنيًا فلم أجد دليلًا على شيء.

البرتقالة أشرقت في سمائنا الطينية، فأسرعتُ إلى صديقي، وقدمتي للبت بوسي، العجفاء الممصوصة المنكوشة رغم المنديل المهترئ المربوط على شعرها. هنا لا يكون الأعجف أعجف من شح المأكل، فلا أحد يأكل ويشرب بل يتخذ جسده البنية التي كانت له فوق. سألتُني عن أسماء أهلي واسم شارعنا لتنطق بها قبلَ أن تنام.

تركتُها وبدأتُ مشيتي الصباحية. فنحن هنا نمشي كثيرًا ونتفرج في العتمة البنفسجية على جذور الأشجار العتيقة واللحود الجديدة والقديمة، المغلقة والمفتوحة (بعد نجاة ساكنيها إلى مدينتنا)، ونتأمل بقايا الكلمات والحروف القديمة على الأرض قبل أن تنحلّ وتوحل، أو إذا كثرتْ تجري في قنوات صغيرة حتى تجف وتتفتّت. الدرسُ الأول هنا: لا تنطق بسر أبدًا ولو في خلوتك، فقد يعثر به غيرك قبل أن تجف الكلمات. أنا نفسي أرى

أحيانًا كلمات لي ملقاة أو متدفقة في أماكن بعيدة عن المقهى، حيث نطقتُها.

ثم حدثت الحادثة... سمعتُ خطوات جنازة، وقد أصبحتُ الآن لا أبالي بها. كنت في أول العهد هنا، أهرعُ إليها وأرهف سمعي لبكاء مشيّعيها، وأتخيل تفاصيل الجنازة، ثم أشارك في مناداة الميت في الهنيهة التي بين إغلاق القبر وخروج المشيعين من المقابر، فإذا واتتْه قوته واكتشف إمكاناته فلمس اللحد، انثقب ثقب النجاة، ودخلتْ إليه أصواتنا وحملتْه إلينا. ثم نتضاحك بصخب ونعبث بالمواطن (أو المواطنة، لا فرق) ونظل نراقبه حتى يتضاءل إلى حجمنا. دائمًا نعرف الجنازة من خطوات المشيعين التي تحدث دبيبًا كدبيب النمل، في خط يتقدم نحو القبر المهيأ لنزيله، ونحن لا يجوز لنا أن نثقب لحدًا، أيّ لحد، ولأي سبب. نحن ننادي والميت هو الذي يثقب أو لا يثقب.

قلتُ لك إنني سمعت خطوات الجنازة، فلم أبال، لولا أني لمحتُ القطة مقعيةً متضامّةً ترقبنا من بعيد بعينين من نار، فنظاهرتُ بالمشاركة في المناداة على الميت لأرى ما يكون، فإذا بالجنازة تمضي إلى اللحد الذي خمشتْه اللعينة آخر الليل، وإذا بعينيْها تكادان تحرقان أجسادنا، وهي في مكمنها، لفظاعة نظرتها. ثم ناديتُ معهم بأعلى صوتي بلا رد من داخل اللحد، حتى سمعنا خروج المشيعين، فمات الميت.

* * *

رغم ذهولي لم أنس موعد البت بوسي، فخففتُ إلى المقهى، وكانت رائقة بادية البهجة فاستبشرتُ. أجلستْني أمامها وأخذتْني بسرعة البرق: إخوتي يتصارعون على محل جزارتي فمدة عقده طويلة، إيجاره هين، أدواته (وتلك هي الأهم) مكتملة جديدة. عمي (كبير العائلة) اقترح مبلغًا، تعويضًا، من قاتلي، لأننا أبناء حي واحد ودين واحد، ولا يجوز التناحر بيننا، وحين احتدمت المساومة بينهما ورأى شقيق قاتلي تصارع إخوتي على الجزارة (وكان هو مالكها، وموجّرها لي) داس عليهم وعرض (ضمن الصفقة) مد العقد ثلاث سنين أخرى بإيجار أقل، فقبلوا صفقته، وتنازلوا عن القضية.

أما الفتاة القحبة التي هي سبب قتلي، فتزوّجتْ. سبحانك يا رب. هذه آخر فتاة في الدنيا يُقتل كائنٌ (ولو كان صرصارًا) من أجل "شرفها". لن أذكر اسمها في عالمنا هذا لنُحرمَ منه. لم تكن تلك الوضيعة أكثر من بنت عادية، لم تكن عشّاقةً، بل مهيّجةً لتنافس الرجال عليها.. السافلة مدبّبة الذقن.

هي من حارة بعيدة في الحي. سمعتُ بها وبمغامراتها، ويوم قتلي كنت أجدّد بطاقتي في القسم وكانت ورائي في الصف، فلم تفوّت ذراعي

الفرصة واحتكتْ بصدرها. عصرتُه واصطنعتُ الغفلة والانشغال، فأنا شاب غشيم طيب القلب، لم أكن أطمع إلا في خطف لحظات من اللذة، أظل أستمني عليها شهرًا كاملًا. كانت الوضيعة تتصيّد هذه الفرص لتصيح وتهز رأسها كالدجاجة الهائجة، راعشةً بذقنها المدبب كالدبوس وهي تغرّ بالسباب، وتجمّع أكثر ما يمكن جمعه من المتفرجين.

كان أهل قاتلي قد تكلّموا عليها، فوصلهم كلام عن أخلاقها وخطر لهم أن يتراجعوا، وكانت المساومة بينهم حامية، حتى وقع ما وقع، فخافتْ أمها الحيزبون من بوارها، وذهبت لزوجها في جزارته وولولت.. أمسكت سكين الذبح وأقسمتْ لتذبحنّ نفسها. كان يمكن لزوجها أن يطردها متحديًا أن تقتل نفسها، فما أكثر ما حلفتْ على ذلك وحنثتْ به، لكنه أعجبه أن يكمل اللعبة ويتفرج عليها مع المتفرجين، فمن الذي يخاف المعلمُ منه (إلا اللي خلقه طبعًا) في هذا العالم؟

أخفى السكين في جيبه وذهب لأخيه (موجّر الجزارة لي) وطلب مرافقته ليساعده على تلقيني علقة في محل الجزارة. دخلا وسلّما عليّ بغضب مفتعل، فكدتُ أضحك عليهما وعلى غضبهما لشرف الفتاة مدببة الذقن كالدبوس، وحين التفتُّ لأطلب لهما الشاي، أخرج أبوها السكين دون أن ينتبه شقيقه إلى أنَّ ذبحًا سيقع في محله، لكنّ دمًا بشريًا هذه المرة سيجري على البلاط.

الآنَ، وأنا دائر في دوامة الذكريات، أستحضرُ ذلك المشهد فلا يحضرني منه شيء. فكرتُ كثيرًا: كيفَ تعيش الذبائح تجربة الذبح؟ فعشتُها أنا، ولم تكن شيئًا. أريد أن أعرف الآن: هل رفّصتْ ترفيصًا قويًا؟

وماذا رسم دمي من أشكال على البلاط؟ لا جواب. طيب متى أدركتُ أنني أُذبَح؟ لا أدري. ولعلي لم أدرك ذلك أصلًا.

كل ما في الأمر أن إخوتي يجب أن يحصلوا على محل جزارتي بثمن بخس، فكان لا بدّ من سيناريو وبطل لفيلم، وكان الفيلمُ، وكنت البطلَ.

وهكذا تزوجت الشريفةُ ذاتُ الذقن المدبب.

* * *

البت بوسي، التي أسكتُّها أكثر من مرة حتى يهبط الكلام المتراكم على الأرض، حكت كل شيء بتلذذ كبير. هل هي شريرة كل هذا الشر، أم أن صديقي اختصَّها بقطعة حشيش معتبرة؟ صديقي الأهبل الذي يقول عنها "مودموزيل". طيب، هل أنا غاضب لأنني جعلتُها تحكي وتذكّرني بالذي كان؟ هل أنا الآن أسعد أم أتعس حالًا؟ لا أدري حقًّا. لم أكن أحب حياتي الفوقانية إلا في لحظات معدودة أجترُّها أيامًا وليالي، مثل عصر صدر الفتاة ذات الذقن المدبب.

هذه اللحظات لا تمرُّ هنا لأننا لا فتحات غير فتحات وجوهنا. لكن هنا على الأقل تكون المرئيات أجمل بدرجات البنفسجي-الوردي-الأرجواني. وهنا أصبحت الروائي الوحيد في العالم التحتاني. لا بدّ أنك الآن تدرك أنني لم أكن أقصد كتابة هذه الرواية. كل ما في الأمر أنني بعد حديث البت بوسي وبعد ما حكيتُه لها لتكتمل الصورةُ، لاحظتُ بركة

كبيرة من كلامنا، وبدا أنها ستفيض وتشق لها مجرى وتجري في أزقة مدينتنا ويقرأها كل من هبّ ودب، فجربتُ ونزعتُ غطاء شيشة قديمة وعبّأتها بالكلمات، أغرفها بيديّ من البركة وأعبّئها.

حين امتلأت الشيشة الأولى سددتُها، وعبأتُ أخرى وأخرى، وحين انتهيتُ، ونظرتُ لصف الشيَش المرصوصة مفكرًا في مكان لتخزينها، اكتشفتُ أنني أقرأ رواية. رجوتُ صاعدًا صديقًا أن يختلس لي كراسة وقلمًا من فوق، فجاءني بهما وإن كان القلم مستعملًا والكراسة مكتوبًا في نصف ورقاتها. بدأتُ أقرأ الكلمات المعبأة وأنسخها في كراستي، وحين رآني المواطنون ضحكوا عليّ قبل أن يسألوني عما أفعل، فمن هنا يحفظ كلمات أو يدوّنها؟! الكلمات هنا تسيل على الأرض فتصبح كتابًا يقرأه الجميع.

دون تردد، اخترعتُ وقلتُ لهم إنني عزمتُ على تحدي قدَري بتدوين الكلمات ومراكمتها رغم أنها وسيلة قتل... (أي كلام يا عبد السلام) فكيف لي وأنا أول روائي أصبَح روائيًا بعد موته، كيف لي أن أشرح لهؤلاء "النَوَر" خطورة أن تكون أول روائي أصبح روائيًا بعد موته؟!

وكي لا تذهب بعيدًا أنت أيضًا، أقولها لك صريحةً: ليس الأمر مهمًا في نظري، لولا أنه ينسيني حقدي على زوج البنت ذات الذقن المدبب، وعلى كل رجل في العالم الفوقاني، ويطفئ شيئًا من مقتي لأهلي، فأنا أفضحهم جميعًا هنا.

أمي المسكينةُ، حكت لي البت بوسي أنها تكاد تموت قهراً منذ تمت المساومة على دمي، ففكرتُ أنها لا بدّ أن تُدفن في مدفننا، وحينها سأكون الأقرب إلى اللحد، وأنادي عليها بكل حقدي على هذا العالم، وحين نخرج من النقب سأضحك عليها، لكن ليس كثيراً، وسأتدلل عليها لتخدمني، فأنا أول روائي أصبح روائياً بعد موته. أمي ستفغر فمها حين تسمع هذه الجملة مني، وستضيق عينيها كأنها تقدّر تماماً خطورة الموقف.

* * *

أما أبي، فكلما فكرتُ فيه، ضحكتُ وطربتُ. الرجل الذي كان حلمه أن يكمل أحدُنا "علامة"، ابنه الآن أوّل روائي أصبح روائياً بعد موته. تحقق حلمه حيث لا يمكنه أن يراه هناك بعينه الحولاء العجيبة. أبي الذي كان أطفاله الأوغاد يشقّون أكياس الشبسي بعد أكلها، ليلعقوا ما التصق بباطنها من فُتات، أبي هذا نجب أحد أطفاله الآن، فأصبح الروائي الذي نظر إلى شيشة بعد أخرى ونسج كلماتها.

وإذا بالكلمات (لغرض خبيث في نفسها) تطاوعه أي مطاوعة، وتسلس له مثل كلب "لولو"، ألا ترى كيف أنانّق في كلماتي فأُوقع في روعك أثراً كالذي كان جاري "حلزونة" يوقعه في روعي، حين كان يربح ربحًا مضاعفًا من "صنف" مغشوش، فيسرع إلى الوكالة، ويعود بأطقم الملابس التي "تكهربني" بألوانها البديعة الأنيقة.

اسمع، لا تقل لي إنني كنت موهوبًا بلا شك وإن لم يكتشفني أحد، وإن الموهبة توجد في المبدع منذ أن يخرج حيوانُه المنوي من عضو أبيه، دعكَ من هذا الفساء لو سمحتَ، فأنا لم أقرأ منذ رسبتُ في الإعدادية إلا بعض تحقيقات الصحف الصفراء التي كان يهرّبها لي حلزونة. القصة الوحيدة التي فكرتُ في اقتنائها هي ألف ليلة وليلة. الدكتور حسام، هو أول من حدّثني عنها وأنا أزن له نصف كيلو "مخاصي". أكّد لي أن ما فيها من "سكس" يفوق كلَ ما تعرضه الأفلام والجرائد إياها.

لم أكن أثق في شيء من كلام الدكتور حسام. كان يكرهني. مرةً شعرتُ أنه سيعضّني بعينيه عضةَ كلب مسعور، حين مدّ لي يده بثمن اللحم، فرحتُ أردّد له "خلّي علينا يا دكترة... خلي يا باشا" في اللحظة التي قبضتْ فيها يدي على المال من يده، في اللحظة ذاتها، كأنني خفتُ أن يصدّقني.

لذلك أمرتُ أختي الأصغر الذي يستخدم "النت" أن يتأكد أولًا من قصة ألف ليلة وليلة، وأن يطبعها من "النت" إذا كانت كما زعم الدكترة، فبحث ثم أخبرني أنها تقع في مجلدات كثيرة "يعني إيه مجلدات؟" سألتُ غاضبًا، فأوضح أنها أجزاء وكتب كثيرة، وطبع لي صفحات تتحدث عن الرجل الصالح "بلوقيا"، ابن النبي "دانيال"، الذي استعان بملكة الحيات "يلميخا" حتى يلتقي بسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام قبل نبوته بآلاف السنين. زهدتُ في قراءة الكتاب بقدر ما كرهتُ الدكترة الوسخ.

* * *

هكذا كانت متع حياتي في العالم الفوقاني. أما عملي والرقاب التي كنت أنحرها كل يوم فلم تكن شيئًا. في البداية حاولتُ أن أندهش وأشعر شعورًا ما بنبض الرقبة على كفي وهي تقبض على عروقها المضغوطة بكامل كثافتها تحت أصابعي، ثم انفجارها الأحمر بعد أن تنحرها يدي الأخرى، ثم تراخيها وخوائها من الروح والدم، فإذا كان "ترفيص" الذبيحة عنيفًا طويلًا، فإنه يثيرني أحيانًا بما يرسم من أشكال حمراء أغنيها على بلاط الأرضية.

الذبيحة التي ماتت ميتةً لا يمكنني نسيانها، كانت خروفًا أستراليًا سمينًا، بدا لي، خلاف المسمَّنين، لئيمًا خبيث الطوية. كان يوم أضحى، وكنت قد تقاولتُ على ذبح عدد من الخراف بعد الصلاة، في فناء إحدى العمارات. حبستُ المجموعة في "المنور" وأخرجتُها واحدًا بعد آخر، أذبحه وأكسح الدم عن الأرض، ثم أسحب التالي. ذلك الخروف اللئيم، أتى أمرًا عجبًا، تسلّل من المنور خلسة فور ذبح أحد الخراف، كأنما فهم نداءات الذبائح المحتضرة قبله، أو لعله حدس بما جرى لها.

فلما رأى الدم بحيرةً والذبيحة معصورةً، هاج وجرى للأمام خائضًا في الدم نحو باب العمارة، وليس إلى باب المنور خلفه. كان يدرك سبيل الهرب إذن، السمين القذر. أمسكناه وجررناه للمنور ونهرتُ مساعدي.

أجّلتُ ذبح الخروف إلى الدور الأخير، ربما لينسى وربما ليتعذّب. وكما لو كان ينتظر اللحظةَ، فور أنْ حُرتُه اندفق الدم حنونًا عذبَ الحمرة، وسكن الجسدُ فورًا، حتى إنني لم أصدق أنه نَفَقَ إلا من عينيه. كأنما كان يؤدي دورًا في فيلم من إخراجي.

هذه كانت حكاياتي الصباحية مع البت بوسي، تحكي حينًا ونصمت حينًا، قبل أن أنصرف إلى تتبع الجنائز. بالأمس عرضتْ عليّ فجأةً أن تبحث لي عن واحد من خواص الصاعدين الذين يمكنهم أحيانًا الاتصال بأحد الصاعدين السابقين الذين نُظروا خارج سور المقبرة فسقطوا في عالم الأرواح، ويطلب من هذه الروح أن تتسلط على الفتاة ذات الذقن المذبب، حتى تأتيَ أمرًا يكون سببًا في أن يقتلها زوجها. ضحكتُ وقلتُ لها إن هذا لا يحتاج إلى روح ولا إلى تسلط، حتى يقع.

ورغم أن البت بوسي عبيطة منكوشة فإن فكرتها شغلتْني سائر اليوم. ماذا لو قتلها زوجُها وصادفتُ دفنَها، أو رأيتُ دفنها يمشي كالدبوس في ساحتنا كما أرى الوجوه الجديدة الصغيرة من آن لآخر؟ فكرتُ طويلًا فيما سأفعله بها، وقبل النوم، استقر قراري: وقتها سأطلب من صديق لي من الصاعدين، أن يجلب لي خيارة كبيرة من فوق، وفي كل صباح ومساء سأذهب إلى الجذر الذي تتوسّده ذات الذقن، وأولج الخيارةَ في فتحة فمها وأسحبها بقوة مرةً بعد مرة. ألم تُفقدني حياتي فوقَ إلى الأبد؟ لأفعلنّ بها ذلك إلى الأبد هنا أيضًا، هكذا لا يضيع قتلي هباءً.

* * *

أخيرًا انضبطتْ "ساعتي البيولوجية" كما كان الدكترة الجاهل يتشدق بالمصطلحات الأمريكاني، أنام قبل غروب البرتقالة حتى أصحو في عز الليل نشيطًا، وأتلصص على قطتي الشيطانة وهي تخمش اللحود التي ستأتي الجنازات بساكنيها غدًا نهارًا. لا تتصور نشوتي بعلمي هذا الذي اصطفاني به الشيطان. صباحًا أجلس كالملك على المقهى، وأسحب أنفاسي بوقار وعَظَمَة، أخطب في سري: "أيها الأوغاد، ما أجهلكم!!" وفي فيضان الفرح، أكتم انفعالي عن البت بوسي فلا أشير أمامها، ولو إشارة، إلى علمي الخصوصي هذا، فربما تفضح أمري، فيتلصصون كلهم مثلي ونصير سواء.

يومًا بعد يوم، استوعبتُ مدينتنا وحفظتُ حدود أسوارها التي تنزل إلينا كأنها جذور الأسوار الفوقانية، لكن أسوارنا بلا أبواب. ثم بدأتُ أحدد خريطة مدينتنا بإرشاد أحد الصاعدين الذين يلهون طول الليل فوق، في المقابر، ويتسللون بالفرجة على القبور، ثم ينزلون إلى مدينتنا قبيل الفجر ليعلّقوا البرتقالة، ويكملوا نزهاتهم بالمشي والتسلّي بمضاهاة اللحود هنا مع قبورها فوق وتحديد مواقعها متجادلين أحيانًا، متحمسين دائمًا.

أما أنا فلم أكن أنشغل بشيء من تلك المضاهاة مع العالم الفوقاني، بل كنتُ أعجب من أي محاولة لربط العالمَيْن معًا. وكان أشد ما يُضحكني

أن يظل مواطنًا يتردد في أيامه الأولى على لحده، يجلس جواره كأنه يمسك في قلبه بالذكريات والحكايات القديمة كي لا تتفلّت منه. هؤلاء أسمّيهم العبيد. ربما كانوا أغنياء، وربما كانوا عشاقًا، أو أيًا كانوا، فقد انتهى كل ما كانوه، ولن يجديهم هنا إلا أن يألفوا فضاءنا البنفسجي-الوردي-الأرجواني، وأن يكفّوا عن الثرثرة واجترار الحكايات قبل أن تخنقهم.

بعض العبيد مثلًا يرابط عند لحد نزل فيه، حديثًا، قريبٌ أو حبيبٌ، لم تحركْه المناداة فمات. ثمة حالات أخرى أشد عجبًا. واحد من الآباء المؤسسين لمدينتنا، وهو شاب وسيم لطيف المعشر بجلباب معلمي سوق السمك في عشرينيات القرن الماضي، يتوطّن عند جذور شجرة جازورين قريبة من السور، يُقال إنه هو الذي غرسها، قبل موته، قرب المدفن الواسع الذي اشتراه لنفسه ولأسرته، وهيأه تهيئةً حسنة ومدّ له ماءً وزرع وردًا، وكان أهله يستغربون منه، وهو الشاب المدكوك صحةً وعافيةً، المُرزَق بعنقود مثقل بالأطفال، كيف يستغرقه تجهيز المدفن كل هذا الاستغراق؟

يقال في مدينتنا إن المعلم الصاعد نحمُه في سوق السمك نحّى صبيانه يومًا، وقد أراد أن يزنّ لامرأة جميلة شروة سمك بيديه، إكرامًا لها، فشكّتْه سمكة مسكونة بشوكة زعنفتها بين ظفر إصبعه ولحمه، وكانت الشكّة سامةً فنفذ فيه أمر الله، أو قل أمر الغرام والصبوة، وكان المدفن وارفًا مستعدًا.

هذا المواطن لم ييأس، فبدأ مع الآباء المؤسسين في تهيئة ساحة مدينتنا، ومشوا في الممرات بين اللحود وتكلموا معًا، فسقط كلامهم في أرض الطريق وأرض الساحة فتماسك قوامها... وكان هذا المعلم أول من ابتدع توسُّد جذور الأشجار عند النوم، ليس لأنها أكثر راحة فحسب، بل

لأن شجرته هذه غرسها بيديه. لقد ظلتْ شجرته تصلُه بعالمه الفوقاني. ونمت وامتدت جذورها فحجزها وسائدَ لنسله الآتي من فوق.

ولذا لم يفارق شجرته إلا ليستقبل أبناءه، الذين نزلوا إليه شيوخًا وشيخات، فكان أول من ينادي عليهم بصوته الهادر الذي خُلق لينادي على السمك فَبرجَّ السوق، ولبّوا نداءه جميعًا وعاشوا معه هنا، رغم أنه لا أُسَرَ لدينا إلا نادرًا، لأن الأسوياء منا يبدأون هنا حياة جديدة. ومؤخرًا بدأ أحفاد المعلم يفدون بعد آبائهم، والمعلم الشاب الوسيم يترأس ذريته الهرمة ويحكمها كما شاء، ويشتمها كما شاء، مثلما كان سيفعل في العالم الفوقاني.

* * *

مَنْ أولُ من خرج من لحده ونادى على الآباء المؤسسين؟ لا ندري. فهؤلاء أنفسهم بلغوا الآن مدى بعيدًا في الاستغناء والتجافي عنا، حتى لم يعد استنطاقهم مجديًا، الوحيد الذي ألفناه منهم فحادثنا هو معلم سوق السمك الذي لم يشف غليلنا بشيء. ويقال هنا إن المواطن الأول كانت امرأة دفنها أهلها حيةً، جاهلين أنها غائبة عن الوعي. وقبل خروج آخر المشيّعين استفاقت قبل أن يكبسها التراب داخل اللحد.

يقال: كان صوت أمنا الكبيرة تلك رجيمًا، يشد أوتار الرجال كلما سمعوه، فحين صاحت على أهلها لم يحتمل اللحد عنفوان الصوت، فكان الثقب الذي انقذف منه صوتها، ثم تكاثف منشئًا الكلمات الكونية الأولى لمدينتنا.

هذا الصوت الدافق حين خرج من اللحد حمل صاحبته، فكانت أول من خطا فوق الكلمات الأولى، وسارت ومهدت الأرض، ونادت على مَنْ مات بعدها فلبّى من لبّى ومات من مات، وتطوع الآباء معها وفرقوا أنفسهم في النواحي واجتهدوا في المناداة بهمّة عظيمة. ولما كانت قد فارقت العالم الفوقاني، لم يكن يجوز لصوتها أن ينقذف ويثقب اللحد، لأنه صار محرمًا عليها هنا، فقضى الله على أمنا وعلينا: نعيش في مدينتنا بلا فتحات غير فتحات وجوهنا.

* * *

ليلةَ أمس، حين تلصصتُ صُعقتُ. . خمشَت القطةُ لحد قبري. عرفتُ أن واحدًا من أهلي مات نهار أمس، وَستأتي جنازتهَ اليوم. كنت قد دأبتُ على استئناس القطة فلم تأنس لي، اللعينة المسكونة، فلم يكن لي من سبيل لأعرف الميت إلا رجمًا بالغيب. جافاني النوم. من الغد قد يصبح لي قريب في مدينتنا. لم أرغب في ذلك إلا لو كانت أمي، فظللتُ ساهرًا أنطق اسمها ليكتمل وجودُها بجسدها مع اسمها. وخططتُ خططًا كثيرة احتياطًا لهذا المشكل المفاجئ.

لم أرد أحدًا هنا إلا صديقي والبت بوسي وأمي.

بعد صلاة الظهر وصلتْ ثلاث جنازات فرافقتُ التي تتجه نحو قبر عائلتي، وحين اقتربت الجنازة منه، ميزتُ صوت نادبة تندب باسم عمي كبير العائلة، الذي ساوَم شقيق قاتلي على دمي، فتوترتُ، لكن أسعفتْني الحيلة، فصحتُ في مواطنينا أن يتركوا لي جنازة أهلي، فأنا الأولى منهم بالمناداة عليهم، وهذا قانون قديم لا نخالفه، فأوسعوا لي وتنحّوا.

ولمّا سمعتُ التراب يغمر عمي تلكّأتُ وتنحنحتُ لأنظف حلقي، ثم اقتربتُ وبلعتُ ريقي كله كي لا يكون لصوتي جرمٌ ينفذ إلى داخل اللحد، ناديتُ همسًا، ثم بلعْتُ ما تجمّع من ريقي ثانيةً وهمستُ مناديًا، حتى سمعتُ خطوات المشيّعين تغادر المقابر. أحمدك يا رب. . قضي الأمر وغارَ العرصُ.

* * *

هذا اليومَ يومٌ ميمونٌ موفور البركة. فبعد حكاية عمي آثرتُ النزهة في أرجاء لم أكن أبلغها كثيرًا، وكان المشي يسلّيني عن أمي التي افتقدتُ خدمتها لي. وفي آخر مدى نزهتي، حين بلغت شجرة جميز صغيرة في أقصى المدينة، وأوشكتُ على الرجوع، رأيت قفًا متوحدًا يعزف على جيتار ألحانًا تزلزل القلب. تسمّرْتُ مكاني وارتجفتُ.

فأولًا: لم أكن أعرف عن مواطنينا المعدَمين ميلًا للفنون حتى إنني فور إمساك قلمي صرتُ كاتبهم الأول، وفي الحقيقة كاتبهم الأول والأخير، فلا يبدو أن كاتبًا آخر سينافسني على انعدام قرائي. وثانيًا: هذا القفا الكبير أعرفه ولا أعرفه، أعرفه لأنني رأيته مرارًا في العالم الفوقاني، لكنه لم يكن مع جيتاره هذا، الذي اجتهد فصنعه من غصن شجرة يابس وحبال غسيل مُوبَّرة جلبها له الصاعدون. ومع ذلك كان يصنع من الغصن وأوتار الحبال جيتارًا يرميك بالسِّحر.

لم أشأ أن أفسد على نفسي ذلك الطرب، فسكنتُ حتى فرغ وصفّقتُ له تصفيقًا مسرحيًا. . . يا إلهي الرحيم، إنه صامولة البلطجي، قتّال القَتَلة، كان حجمه لا يزال أكبر مني، ما يدل على أنه وصل منذ يومين.

صامولة ابن حارتي، سمّيناه بهذا الاسم منذ صار صبيًا لأنه كان شاطرًا في "تربيط" راغبي المتعة بمانحاتها من نساء أسرته، ثم من نساء الحي.

وبعد أن راج سوقُه اتخذ له أدلاءَ ومساعدين، وبدأتْ معاركُه مع القوّادين الكبار في الحي، وكان قاتلًا بالفطرة، جبار القلب، متمكنًا من السلاح، فتوالت انتصاراته. وحين أراد المعلم حمودة خوض انتخابات مجلس الشعب، اختاره زعيمًا لبلطجيته. ونجح المعلم حمودة وابتسمت الدنيا لصامولة، وبدأ يغطس طويلًا ويظهر قليلًا في الحارة ليرى أسرته، ويعمّر مزاجه معنا لو سمحت ظروفه.

"خد ياله يا ابن الوسخة إنت". نسيت أنني كاتب مهم الآن. ربما كانت رؤيته هي التي أنستْني إمكاناتي الجديدة وأعادتْني إلى سيرتي الأولى. عاتبني، كيف أشتمه وهو الفنان هنا! أجبته بأني الروائي هنا أيضًا، ودعوتُه لقراءة ما أنجزتُه من روايتي فانشرح وانبسط. لم تبدُ له صلة بالفن في حياته الفوقانية، لكنه حين كان يستعد لمعركة، كان يزيل توتره بأن يستعيدَ إيقاع أغنياته المفضلة بنقر سيفه على ساطوره الكبير، هكذا وجد نفسه هنا يهذّب الغصن ويصنع أوتاره بحبال الغسيل.

غنّينا وتذاكرنا أيامنا، ونبّهني لذكرى نسيتُها: يومًا، قال شاب من حارتنا، كنا نسميه الفاشل، إنه نشر قصة في صحيفة محلية، وإنه يستعد لكتابة رواية، فسألتُه عن الفرق بين القصة والرواية، فراح يتحدث بكلام كبير سخيف نسيتُه، ولم أفهم شيئًا، حتى غضب الفاشل من شدة جهلي وضرب لي مثلًا: القصة القصيرة تشبه الفسوة في حين تشبه الرواية عملية تغوّط كاملة... فأدركتُ المعنى.

ثم تحدثنا عن مدينتنا وسألته عن حاله، فامتعض وشكا لي أنه بالأمس في ذروة اكتشاف إمكاناته وانسياقه لطبعه الجديد، طلب من أحد الصاعدين قشرة بيضة، ثم شذّبها حتى صنع منها نصف قشرة مستديرة، وفي الليل حين أنزلوا البرتقالة قام وعلّقها قمرًا في سمائنا، فسخر المواطنون منه وخطفوا القشرة ولعبوا بها حتى هشّموها. قالوا له: حين تصبح لدينا فتحاتٌ ثم عشاقٌ، تعالَ وعلّقْ قمركَ لهم. فآلَه ذلك وشكا قساوة المواطنين وجَلافةَ نفوسهم. عزّيتُه ووعدتُه أن يكون من أبطال عملية تغوّطي هذه، كما شرح الفاشل، وضحكنا. انصرفتُ دون أن أسأله عن أهلي فوقَ.

تابعتُ تلصصي على القطة المسكونة، وسليتُ نفسي بترصد المواطنين الجدد والمناداة عليهم. لم أعد لألازم صديقي والبت بوسي طويلًا، ولم أبال بحكاياتها عن أهلي. أكتفي بشيشتي ومتعتي وأنا برفقتهما كل صباح، عالمًا وحدي بما سيأتي من جنازات. صديقي الذي سَبقني إلى هنا منذ زمن طويل، أصبح أشدّ اكتفاء بإمكانه الذاتي وأكثر استغراقًا فيه، رغم أنني أبقيتُ له القليل من الشِّيش، بعد أنْ عبّأتُ أكثرها بكلامي مع البت بوسي، وأحيانًا بكلامي مع دخان الكريز وشخوصه.

صديقي ولد خامل. لم يرُقْ في عيني إلا لأنه يقدّم شيشه بهمة ودون مقابل، فهنا لا مال ولا عقار ولا طعام، لذا لا منافسة. ثم أدركتُ أن صديقي يقدم شيشه ليقف جوارها ويرسم بدخانها الأشكال نفسَها كل مرة: لعبتَه المفضلة وعلبة عصير أناناس وزعيق أبيه. الأحمق لا يزال يجترّ.

تدريجًا، صرتُ أكثر استئناسًا بصامولة. الفنانون بعضهم أولياء بعض، بهذا شعرتُ فور سماعي الأول لمعزوفاته، فأدمنتُها، حتى أصبحتُ

أحب أن أنسخ روايتي في الكراسة وأراجع صياغتها فور انصرافي عنه، حيث يصير جسدي الضئيل علبةَ نغم صغيرة. فجأة طرأ تطور فني خطير على صاحبي صامولة. لاحظتُ ذلك في طريقي إلى جمّيزته، ثمة تغير واضح في الإيقاع، فهو أسرع وأكثر تطريبًا وترقيصًا، ولما اقتربتُ، كان ثلاثة مواطنين متحلّقين حوله، وأمامه ترقص امرأة ولا أي رقصٍ!

أن يتحلّق ثلاثة من المواطنين حول شيء، أي شيء، (في ناحية نائية من مدينتنا التي لا يلتقي فيها أحد بأحد) أمر عجيب غاية العجب. الغوغاء الذين هشّموا قمره، بدأوا يستمعون ويطربون وينبهرون بالرقص. لا تتسرعْ فتظن أنهم تحلّقوا لأن الرقص أثار شهواتهم، فأنا قلتُ لك مراراً —يا أحمقـ إننا لا فتحات لنا إلا في وجوهنا.

* * *

بعد العرض الفني الأول في تاريخ مدينتنا، وتهليل الجمهور، عانقتُ صامولة ضاحكًا في سري من دموعه المكبوبة على خديْه، صدّق نفسَه الفنان الكبير صامولة، لعله المرةَ المقبلة ينحني لجمهوره كمايسترو، لكن لا بأس، فأنا أعلم بالجنازات علمًا لا يعلمه غيري هنا. ثم إنه، في أغلب الظن، يستعيد الآن ذكرى شبابه ومواهبه فوق، فيمنّي نفسَه أن يبدأ بتربيط المواطنين برقّاصته، فتزدهر أعماله هنا أيضًا، لكنّ خلِقتنا هنا لن تسعفه.

بعد أن هدأ فيضان مشاعره، عرّفني بالرقاصة "الأخت أسماء"، فتشوّقتُ لحكايتها وأدهشني اسمها. كانت زوجة "أخ" من حي بعيد، وكان الأخ يوزّع وقته بين المتاجرة وشئون الدعوة وزوجاته الأربع. ولم تكن الأخت أسماء تخرج كثيراً. لم تشغفها الدعوةُ قدر ما استثقلتْ أهل زوجها وزوجات الإخوة. ظلت تقضي وقتها، حين لا يكون اليوم دورها في المناكحة، في متابعة القنوات الفضائية التي تبثّ الأناشيد الدينية لأنها تُفرِحها وتجدد نشاطها.

بالتدريج، أصبحت تسمع وتهز رأسها وكتفيْها، وحين تنتشي، ذراعيْها، حتى قوّت قلبها يومًا وبدأت تقلّب القنوات متمهّلةً أمام قنوات

الفيديو كليب. تلك الأغاني كانت ترقص روحَها، مع أنها كانت تتمكّر بخجلها من كل هذا الفجور في غياب زوجها.

في ليلة ربيعية تذكّرت فتوى سمعتْها في الطفولة: رقص المرأة لزوجها جائز. فعشّت الرجل، ثم أرادت أن تحرّر قلبها وقلبه برقصة، فكانت ليلة من جحيم، شتمها ولعن ميوعتها، وحين استدعاها للفراش عرّاها بقسوة وأولج فيها كأنه يدقّ مسماراً. انقلب عنها. سمعت شخيرَه. ظلتْ دون حراك. أغمضتْ عينيْها وشخرَتْ. انتهى الأمر.

لم ترغب بعدها في سماع أناشيد ولا أغان. مرةً فتحتْ علبة سيديهات أحضرها زوجها حين شكَتْ له وحدتَها. "شغّلتْ واحدًا منها، وبدأ الشيخ يعظ ويفصّل كيف سيتفنّن الله في تعذيب عصاة المسلمين في قبورهم، وكيف سيرسل الحيات والعقارب لتنهش أجساد المسلمات غير المحجبات. حين أنهت السي دي، أخرجت غيره ثم غيره حتى سمعتْها كلها.

تريدُ الحق؟؟ الأخت أسماء رقّاصة عظيمة. لا أدري حتى الآن لماذا لم أحقد عليها! إنها فنانة كاملة. بهذا وصفتُها للبت بوسي وأنا أكتب معها روايتي هذه. كنتُ صادقًا، ومع ذلك سرّني أن أرى الغيرة تجري على وجه البت بوسي مثل النمل العصبي الذي يجري مسرعًا دائمًا. استطردتُ ـ وكنت صادقًا والله ـ في مديح الأخت أسماءْ. قلت إن لها جسدًا من ماءْ، تشكّله كيف تشاءُ، وتروي به الظماءْ.. ورحت أتفنن في السجع أمام البت

بوسي لكنني حذفت جزءًا كبيرًا من أسجاعي لأن صامولة الفنان نبّهني إلى أن ميولي الشعرية ليس هذا موضعها.

وفي اليوم التالي، لم يكن المايسترو صامولة (فهو يقود ويعزف في آن معًا) في مكانه البعيد، بدأت فطرتُهُ "الصامولة" تنتعش، فقرّر أن ينتقلَ بقيثارته وبالأخت أسماء في أنحاء المدينة، وبدأت الحلقات تتسع وتتكاثف من حولهما. يا إلهي! المدينة تتغيّر.. المواطنون يجتمعون والأخت أسماء تتموّج، تفيض علينا، ثم تنحسر مُرسِّبةً في أعماقنا رهافة الماء وحنان الطمي.

لم يكن لهما موعد محدد، لأنه لا ساعة هنا ولا وقت، ومع ذلك ما إن يبدأ العرض حتى يسري الناس إليهما مسرى الطيور إلى أعشاشها والحمير إلى زرائبها.

بعد أحد العروض، أسرعتُ إلى صامولة وسحبتُه إلى خلوة وقلت له إن الله قذف محبّته (أي محبّة صامولة) في قلبي منذ طفولتنا... ثمّ اقترحتُ عليه ـ محبةً ونصحًا ـ أن أشاركهما في العرض، مثلًا أقرأ مقطعًا موجزًا من روايتي قبل أن يبدأ العزف والرقص، فذكّرني الواطي أن الكلمات هنا إذا بلغت مقطعًا كاملًا فلا شكّ أنها ستخنق الجميع، انصرفتُ وفكرت في سرّي، لن يكفّ أبدًا عن التعريص، ثم مضيتُ أتلمّس أثر قطتي.

بعد الجنائز والمناداة، ذهبتُ إلى ساحة مدينتنا وتأملتُها ودرستُ الممرات المفضية إليها. هي البراح الوحيد الذي يخلو تمامًا من اللحود، فأعلاها مسجد المقابر ولا قبور فيه. أين الموقع الأفضل لافتتاح مكتبتي؟

فكرتُ وعلى وجهي سيماء معركة. "السلام عليكم ورحمة الله، يا أستاذنا". يا للهول، إنها الأخت أسماء بدوّاماتها وشلالاتها وأسماكها، تسلّم عليّ هذا السلام الطيب.

أردتُ أن أبادرها بتحذير واف من صامولة وماضيه لكنها سبقتني: "نفسي أقرا روايتك يا أستاذنا". "ومين قال لك إني بكتب رواية؟". سألتُها متصنعًا الدهشة من ذيوع شهرتي. "صامولة حكى لي عنك كتير قوي، حكى عن عظمة شاب جزار بقى روائي كبير في مدينتنا". شرحتُ لها بتواضع أنه بمناسبة روايتي، أنا الآن في الساحة لأختار مكانًا أنشئ فيه مكتبة لبيع روايتي بسبب سؤال أغلب المواطنين، متلهّفين، عن وقت انتهائها. وهكذا فاتني أن أحذرها من القواد صامولة الخبيث، الذي كان يضربني مثلًا للكاتب الكبير أمام كل مواطن في المدينة.

سألت الأخت أسماء السمراء كصحن الفول المدمس عن الوقت الذي ترقص فيه، كيف تحدّده؟ وبحسب ماذا؟ فهمّمتني أنها تبدأ الرقص حين يشتد الموج فيها، ويضرب الساحل، ويهددها بالغرق، هنا لا بدّ أن ترقص طلبًا للنجاة، فتشير لصامولة ببدء العزف. "طب خدي بالك أحسن يحصل لك تسونامي وتغرّقينا". استظرفتُ. كان لديّ سؤال آخر لم أسأله، عن الكيفية التي عالجتْ بها كفنًا فاقتطعت منه قطعة تحزّمت بها هذا التحزيم، أي حياة ودفء وأمواج فيروز تصنعها هذه المخلوقة من كفن؟!

بدأ الصاعدون الأذكياء ينشطون، واحد يسرق قوقعةً، وثان يلقط سمكةً، وثالثٌ يختلس قطعة خشب مملّحةً من قارب صيد، وما إنْ تنتهي

الأخت أسماء من الرقص حتى يلقوا إليها هداياهم "ونُقَطَهم"، فتفرح بها وتخبئها في حزامها وتمضي موشّحةً بابتسامة. ثم صار سائر المواطنين يتقرّبون للصاعدين والصاعدات ليحضروا لهم ما يتيسّر من فوق. أحد الصاعدين أعياه الأمر فالتقط لها ثوبًا فاخرًا من على حبل غسيل، وحين كوّمه ونقّطها به، لم تأبه له. فالأخت أسماء سكندرية أصيلة.

* * *

حيّ المواطنون الذين اكتشفوا رجولتهم، وتنافسوا. صاروا أشد نكوصًا إلى حياتهم الفوقانية، وكثُرَ المتدربون على الصعود، وكثر المنظورون منهم. عم علي الخضراتي قوّى قلبه وأصبح صاعدًا ممتازًا، لكنه كرّس صعوده للالتقاط بقايا الخضروات الملقاة حول فرشته في سوق الخضار. ورثته فوق ارتاحوا من كنس البقايا آخر اليوم، يتركونها على الأرض، وفي الصباح يجدونها قد كُنست تمامًا. عم علي فرش بعض الأكفان لتصبح الفرشة الأولى في مدينتنا، وظل يراكم الخضروات كلًا في كومته، ويجلس مكورًا يديه في حجره طالما البرتقالة في السقف دون أن ينادي على بضاعته، والمواطنون يوسعونه ضحكًا وهُزْءًا.

أنا لم أفكر في أي صعود، لا بسبب الأخت أسماء ولا بسبب سواها، غير أنني لم أملك منع نفسيّ، كلما تموّجت الأخت أسماء، أن أستعيد مشاهد السلخ الفوقانية بعد أن نسيتها. كانت هذه نشوتي الكبرى فوق حتى إنني كنت أبعد صبياني عن الذبيحة أحيانًا وأسلخها بيديّ. عندي، كان السلخ نوعًا من نزع الثياب، التعرية.

وكان خيالي يسرح وأنا أسلخ الرداء الجلديَّ عن الذبيحة، فأراني أمزّق عن امرأة ثيابها. أما المرأةُ فكانت أي امرأة أراها في الحارة أوَ السوق، وتثيرني حتى أفكر فيما تحت ثيابها. الآن، حيّن ترقص الأخت أسماء، أحلم بها متوسّدةً جذر الجميزة الكبيرة وأنا أسلخ عنها حزامها.

قبيل عيد الأضحى، مرّات معدودة، فوق، لم يمتعني السلخُ. كان اللصوص يقاولونني أحيانًا على ذبح حمير سرقوها، فأواعدهم خفيةً في محل مغلق وأذبحها لهم. غالبًا لا تتم المساومة على لحومها، لأنني لا أقبلّ أسعارهم لهذه الحمير المريضة التي غفل عنها أصحابها، لكني أفوز بأجرة المقاولة وهي كبد الحمار وقلبه، فأجود بها على أصحابي وأهلي الذين يغمزونني كل عيد أضحى عن هدية العيد. خذوا يا أحبابي هنيئًا مريئًا. ثم أتولّى دفن الرؤوس والعظام والجلود في أي خرابة، الجلود القذرة المقرفة لا أريد ذكراها الآن، وأنا أعرّي الأخت أسماء من حزامها.

* * *

صاعدٌ طموح ظل يتأمل عم علي الخضراتي بصمت، حتى استوحى منه فكرةً. جمع أكفانًا مهملة وفرش فرشته، وداوم على الصعود ليلًا ليجمع طحلبًا أو قوقعةً أو غيرها من الأشياء البحرية، ويكومها على فرشته رافضًا مقايضة شيء منها. كان يخطط لتكوين فرشة بحرية عامرة، يقدمها مهرًا للأخت أسماء، واثقًا ثقة الأغبياء من فوزه بقلبها. غير أننا لم نكن لنسكت عليه، فكلما صعد فارسنا اختفى ما على الفرشة فورًا، وخبّئ بحرص في أكوام الأكفان المتناثرة هنا وهناك.

لم ينقّط أحدٌ منا الأخت أسماء بشيء من المسروقات لئلا نفتضح. لم يبادر أحد بهذه السرقة منفردًا كما لم يوحِ بها أحد لأحد، فعلنا ذلك معًا بتواطؤ خفي جارف، فنحن لا نحب المنافسَ المتذاكي. "معلش يا نجم، أكيد نيّتك وحشة". واسيناه شامتين، فبُهت الرجل. لم يكن أحد قد سرق شيئًا هنا من قبل، فماذا يُصنع بالمسروقات؟ الفارس انجرح قلبه وعاد مسرعًا إلى فوق، وكان الفجر وشيكًا.

لقد صحّ ظني، صعد وظل فوق حتى يطلع النهار ويراه أول عابر فيموت ويسقط في عالم الأرواح. انتحر شهيد الغرام المعتوه. ولم نخبر

الأخت أسماء بشيء. هذا أنذرني بما سيؤول إليه مصير مكتبتي، حتمًا سيسرقون نسخ روايتي ويهدونها إليها، ألم تعلن بنفسها في الساحة شوقها لقراءتها؟

* * *

عم علي الخضراتي هو الذي ازداد أرقًا على أرق، أرق الضمير على أرق الشخير. فقد اعتبر نفسه سببًا في انتحار ذلك الروميو حين فرش فرشته فأوحى إليه بالفكرة المشئومة. عم علي هذا إنسانٌ نكدٌ، يُذكرك دائمًا بالغريق الذي يتعلق بقشّة، فإذا قربتَ منه أخذك وغرق بكَ. اتخذني صديقه المفضل (أرأيتَ أنكد من ذلك!) وكلما تمنيتُ له الموت لأرتاح تأثّر وذكّرني أنني كنت المنادي عليه، فهو لذلك يعتبر أنني كنت حبله السُّري إلى مدينتنا، فأصرخ فيه "قَطِّع حبلَك يا شيخ".

عم علي بلحيته الرمادية المائلة للبياض، كان في حياته الأولى يجلس صامتًا أمام فرشته أكثر النهار. نادرًا ما كان يبيع شيئًا إلا إذا ألحّ المشتري. المهم أن يظل ينفرج على الرائحين والرائحات مكومًا يديه في حجر الجلباب. وكان أهل الحارة يرضون به كأنه عمود صغير بُني لغرض ما على هذا الرصيف، وقُضي غرضه فنسيه الجميع. وفي آخر النهار، كان عم علي يجمع القليل الذي تبقّى من القليل الذي اشتراه أول اليوم، ويحمله للبيت، حيث تنتظره زوجةٌ وحيدةٌ ليأكلا خضار الليلة السابقة، الذي طبختْه نهار اليوم.

حين انحسر لون الفلفل وانتشر لون الملح في لحيته، فكر أبناؤه أن أباهم يهدر قيمة الفرشة ليتسلّى لا ليربح. حين تجرّأت البنت الكبرى وفاتحت أمها

في الأمر، اندهشتُ، ما الذي يمكن أن يفعلوه بالفرشة؟ تدخّل الإخوة واقترحوا أن يتناوبوا على إدارتها، على أن يُحْمل للأب والأم كل يوم، المقدار المعتاد من الخضار. "وأبوكم يروح فين يا ولاد الجزمة؟!" سألت الأم ببساطة.

الأب المكوّم كفيه بحجره أمام الفرشة، أحس أن في الهواء رعشة غريبة. قبل دخول البيت أخبرتْه جارةٌ بالخوار الذي استرقتْه من المنور. لكن عم علي ظل مثابراً على روتين حياته. لم يتعود هذا الرجل أن يهزمه شيء لأنه لا يسعى لشيء أصلًا. ثم في صباح ما، صحا محمومًا فلم يمكنه الذهاب لفرشته. سريعًا جاء الأبناء مترقبين.

لاحظ عم علي أنهم يتناقشون ويحتدّون بأصوات خافتة، ففهم أنهم يتعاركون على إرثهم قبل أن تنهي الحمّى عملها بالجسد الموزّع بين إفاقة وإغماءة. لم يرغب عم علي في مشاهدة نهاية الفيلم، فرغب في الرحيل صامتًا صمته المألوف، دون أن يحمل همّ شيء. مع ذلك، لحظةً ناديتُ عليه ثقب لحده وفزّ، قبل أن ينتهي أبناؤه من ردم القبر. والآن لم يعد يصعد كثيرًا، ولماذا المخاطرة والأشياء هنا لا تبلى؟ فهو يغيّر ترتيب الأكوام وطريقة عرضها، ثم يجلس ساهمًا مكومًا يديه، هذا النكد ترى أشباهًا له في صور الفراعنة الخالدين.

* * *

انتحار أول روميو في مدينتنا لم يكن حدثًا كبيرًا، لأن الحالة الجديدة التي أبدعتْها الأخت أسماء، استحوذت علينا مواطنين ومواطنات، فتضاعف الصاعدون حتى صار ليلنا كالنهار صخبًا وصعودًا ونزولًا، ثم لاحظنا أن صاعدَيْن تلازما. صنعا فرشةً وتناوبا الصعود وحراسة الفرشة. هما اثنان، ومن يخُنْ منهما صاحبه ينكشفْ بلا ذرة شك. جمعا الهدايا والنقوط البحرية فأوْعيا. وحين يشتد الموج بالأخت أسماء فتفرّج عن نفسها بالرقص، كانا يتقدمان المتحلقين حولها كملكيْن.

ورغم أن الثرثرة تضاعفت في مدينتنا، وزاد كلام الناس وكثرت حواديتهم، رغم ذلك كله، حدثت الجريمة دون إرهاص ولا نبوءة ولا تحذير. لم أر هرجًا كهذا الهرج في مدينتنا من قبل. إنها جريمة القتل الأولى. فقد كان أحدهما ينزل بالْقيتيْن، يسلم لُقية لصاحبه ويستأثر بالأجمل لنفسه.

وبعد عرض خلاب قدّم للأخت أسماء قوقعة لا مثيل لألوانها، فعاتبه صاحبه واتّهمه، فزعم له أنه قايض هذه القوقعة من صاعد غيره، فسكت عنه شريكه، وحين نام باغته وكتّفه كاتمًا صوته، ودون أن يراه أحد حمله وصعد به قبل الفجر، ورماه على باب السوق وفر هاربًا. بعدها بقليل، مر

كلب على باب السوق فنظره، وقُتل الشريك المنذاكي فسقط في عالم الأرواح.

ظل أهل مدينتنا يثرثرون عن الجريمة وعن الأخت أسماء التي قلبت حياتنا. بعض المواطنات اقترحن إعدامها برميها فوق لُنظر هي والشريك القاتل حتى ترتاح المدينة من شرهما، لكن المواطنين عارضوا ذلك بحزم. ثم أخذ أهل المدينة يتفننون في المقايضات وزاد الصاعدون كثيرًا إما ليحضروا نقوطًا للأخت أسماء، أو ليحضروا نقطًا لمن يقايضهم بها.

عشرة من الصاعدين المبدعين الأقوياء تعاونوا في حمل قارب صيد صغير كامل، ووسّعوا القبر المهجور حتى مرروا القارب وأقاموه في ساحة المدينة نصبًا تكريميًا، كتبوا عليه "إلى الأخت أسماء.. ملكة المدينة". وحيّتهم الأخت أسماء بأداء رقصتها التالية في القارب، وصامولة جالس على حافته يعزف لها. إنها الديمقراطية في مدينتنا.

صاعدٌ آخر أحضر كوبًا زجاجيًا نسي عامل المقهى إدخاله قبل الإغلاق، وملأه من ماء البحر وخدع سمكةً حتى احتال عليها وحبسها فيه، وكانت نقطةً استثنائية للأخت أسماء، راحت المدينة تتعجّب من روعتها. إنه أول ماء يدخل مدينتنا، وكلما ضعفت السمكة ورقدتْ في قاع الكوب، رقصت لها الأخت أسماء، فتعافت وتنفّستْ.

وقايض رجلٌ أجلّ جذر للجميزة الكبيرة كان يتوسّده ثمنًا لقوقعة فاخرة، كبيرة، باهرة الألوان. حتى صديقي الأبله، قايض شيشة بحشيشها، مقابل سمكة بوري فضية أخذها من مواطنة صاعدة وتحرك لأول

مرة من مقهاه البائس لينقّط الأخت أسماء بالسمكة. رجل آخر ابتكر فكرة مهرجانية: جمع قشر السمك المنثور على أرض سوق السمك، ثم نثره في الهواء عليها، وانطلقنا نصفق ونهلل.

البت بوسي المنكوشة ركد سوقها، لم يعد أحد يطلب منها أن ترى أهله فوق. وكانت تكره النقوط البحرية لأنها تذكرها بالبحر، لأن زرقته وملوحته توقظان في نفسها رعبًا رهيبًا، هو آخر ما شعرتْ به فوق، وهي تصارع الغرق وحدها. كان سعر محصول القطن قد ارتفع أيامها فربح أهلها، وجاءوا لأول وآخر مصيف في حياتهم البائسة. فهموا أخيرًا بعد غرق البت بوسي أنهم خلقوا لطين الترع وليس لفيروز البحر.

* * *

في حُمى النقوط، وقعت حادثة طريفة، كشفت عن جريمة. ففي أثناء العرض اقتحم الحلقة عدد من المواطنين ممسكين بشيء صغير ملفوف بإحكام في كفن. دل اقتحامهم وهيئتهم على أن "نقطة" خطيرةً ستُقدم اليوم. لم تتوقف الأخت أسماء عن الرقص. وفي النهاية، أبعدونا متعالين واثقين، وقدموا لها النقطة بفخر.

اقتربنا نتفرج حابسين أنفاسنا. في الفضاء البنفسجي، لاحظنا أن النقطة تشع بضياء نسيناه من زمن بعيد، إنها نجمة ساطعة، إنه نور الشمس، يا للهول. تفرقنا هاربين كالصراصير واختبأنا، لكن النور كان يتسلل إلينا. أما المثقفون ومحبّو الفن في المدينة، فقد مكثوا يتأملون الأخت أسماء حاملةً نجمتها، مشرقةً بنورها على المدينة.

قال عدد من دهماء المواطنين إن يوم القيامة وشيك، وهذه علامة كبرى من علاماته، سألتُ كثيرين منهم عن باقي العلامات فلم يعرفوها، لكنهم لهجوا بالاستغفار والتوبة وجزموا أن الأخت أسماء هذه شيطانة ويجب إعدامها، بينما هم أول اللاهثين وراءها.

المشكلة الكبرى كانت مشكلة البرتقالة، صار للبرتقالة أنصار (من النساء)، ولـ"نجمة أسماء" أنصار (من الرجال) وكادوا يقتتلون لولا أن

الأخت أسماء حسمت الأمر، وجزمت أن النجمة تعويذة لنا، يجب صيانتها بدفنها عميقًا في الأرض حمايةً لنورها أن يتبدد ويضيع، وشرحت لنا أن هذا النور مختزل من الشمس، حملتْه النجمة لكن إذا استمرت تشع، سيفنى النور لأنها هنا لا تمتص نور الشمس. الحل إذن أن نطفئ النجمة. قال أنصار الفريقين: موافقون. لففنا النجمة ودفنّاها، وعاد محبّو البرتقالة لتعليقها وإنزالها.

بعد أن هدأت العاصفة، فطِنّا إلى اختفاء الشريك الذي قتل شريكه من قبل. تبخرّ المواطن بغتة. ولأن الثرثرة زادت في المدينة، أصبح ربط الأحداث وتذاكرها وتفسيرها يتم الآن أيسر وأشمل وأسرع، فاكتشفنا جميعًا أن الرجل تلاشى في الليلة السابقة على وصول النجمة، التي كتم مقدّموها كل ما يعرفون عنها.

بدأت الأحجار تُلقى في مياه الثرثرة فتتسع الحواديتُ والتفاسير والنمائم، مَنْ قائل إن الشريك هو صاحب النجمة، والمنقّطون سرقوها وقتلوه ليذهَب سرهم معه، ومن قائل إن النجمة كانت من مدار فلكه في السماء فلما غربت النجمة غرب هو، ومن قائلٍ إن ذلك علامة أخرى على اقتراب الساعة، وانبعاثنا.

صديقي (سابقًا) السافل الطفيلي، كان على يده انفضاح السر، وأقول السافل لأنه ثبت لي الآن أن مقهاه عامرٌ بالحشيش الذي يضنّ عليّ به، ابن الباشا، السافل، أبو شخّة، يستنكف عن صداقتي و"محاششتي"، أنا الروائي الأول الذي صار روائيًا بعد موته. ما حدث أن واحدًا من

"منقّطي" النجمة تسلطن بحشيش ابن الباشا السافل، وخطرف في الكلام عن النجمة أمامه، ففطن اللئيم وجرجره في الكلام حتى باح بالمكنون:

الشريك القتيل (المتذاكي) كمّن لهم ليلةً عند سور المقابر فوق، كان روحًا نازفًا في عالم الأرواح، فتجلّى لهم وهدأ روعهم، وساومهم فورًا: يُحضر لهم نجمةً ويسلّمونه شريكه-قاتله. فعالم الأرواح فوق مدار الأرض، والنجوم في متناوله، عديدة مبذولة، وما عليهم إلا أن يحتالوا على القاتل فيصعد معهم إلى غرفته، ويفوزوا للأخت أسماء بنقطة لا مثيل لها في المدينة.

لم يروُها صفقةً، قال المخطرف إن الأخت أسماء، حين قرّرتْهم بعد ذلك، طمأنتهم وقالت إنه القصاص من القاتل. وهكذا تمّت عدالة السماء: صعد الروح القتيل ونزل بالنجمة حيث رأى أهل الأرض شهابًا ثاقبًا يهبط من الفضاء. سلّمهم بضاعتهم (نجمتهم)، واستلم بضاعته (شريكه- قاتله) مقيدًا ومصعوقًا.

طار به ورماه في خرابة عامرة بالكلاب الجائعة. «زمانهم قاعدين يجروا ورا بعض دلوقتي في عالم الأرواح». ختم خطرفته وانسطل تمامًا. أما أنا فعزمتُ على مقاطعة اللئيم لحظةً أفرغ من روايتي، ولا تعود بي حاجة لشيشه التي أخزن فيها حكايتي.

هاج أهل المدينة مرة أخرى، لكن الأخت أسماء التي اكتشفت أن أهل مدينتنا "آفتهم النسيان" انطلقت ترقص وتذيع أن القصاص من قاتل الشهيد إنجاز ليس كمثله إنجاز، وأن الله هو الذي انتقم لدم الشهيد. كنت

أتفرّج وأضحك، حتى إنني بدأتُ أنسى أحيانًا التلصص على قطتي. دم الشهيد، الذي هو غشّاش مدلّس، قتله شريكه بسببها، فلم تشجب الجريمة، ولم تغضب لدم الشهيد يومها.

كل ذلك والمايسترو صامولة، الفنان المتحضّر، المتفتّح، المستنير، يرحّب بالمنقّطين والمعجبين ويبشُّ لهم بشاشة تكفي العالمين: الفوقاني والتحتاني. ولأن رفيقته كائن سام (من السمو أم السُّمية؟!)، فقد باشر هو، بلطف وشهامة، جمع النقوط وحفظه، بعد أن تتملاّه رفيقته برهةً وتناولها له، فهو يقود، ويعزف ويوزّع الابتسامة الواثقة هنا وهناك.. بسم الله ما شاء الله.

* * *

الذي لم تصبه حمى النقوط هو رسام مدينتنا. كان فوق، يجمع المواد البلاستيك من صناديق القمامة، فيبيعها أبوه لتجار البلاستيك. كان ينزل للعمل وقت العصر حين تبدأ صناديق القمامة في الامتلاء. يمشي بعربته اليدوية إلى حي الأغنياء حيث تكثر علب البلاستيك في القمامة، ويغطس داخل الصندوق ويبدأ الغوص.

كان يحب تجميع العبوات ذات اللون الواحد في كومات صغيرة متجاورة على الأرض. يستمتع بهذا التلوين ويكتشف الألوان الجديدة ويفرح بها، ثم يلمها جميعًا في عربته ويعود أكثر فرحًا لو وجد ساندويتشًا أو علبة عصير غير فارغة تمامًا. فهذا أفضل من طعام أمه. أحيانًا كانت تعاكسه قطة أو كلب فيطاردهما ويتأخر، ويضربه أبوه.

ولأنه لم يتوقف عن اللعب مع القطط والكلاب، نقله أبوه ليعمل على شاحنة صغيرة بمقطورة لجمع القمامة، كان يجلس على حافة المقطورة وينزل لتفريغ القمامة من الصناديق إلى حاوية المقطورة. وفي آخر اليوم يجمع عبوات البلاستيك في مقلب القمامة، هناك ينتظره أخوه بعربة يدوية كبيرة يملأنها، ثم يبيع أبوه حصيلة اليوم.

في أحد الأيام اختل توازنه وهو جالس على حافة المقطورة بسبب حفرة في الأسفلت، فسقط وعبرت عجلات المقطورة على رأسه فمات قبل

أن يصبح المارة على السائق. وفي مدينتنا اكتشف إمكاناته: ظل يرسم ويلوّن بالتراب والطين والحصى، وأحيانًا يبتكر ويستخدم بعض الكلمات أو الحروف الملقاة على الأرض. كان فنانًا حقيقيًا، ولم يكن يكلم أحدًا من أهل المدينة. أنا الذي ناديتُ عليه يوم دفنه رغم أننا لم نكد نشعر بجنازته لقلة مشيّعيه، يومها كانت الخطوات فوقنا قليلة حتى أننا لم نكد نسمعها.

ظل يعيش بعيدًا عنا ولا يظهر إلا خطفًا في أقاصي المدينة ليرى بعض الوجوه ويرسمها. وكنت أحيانًا أرى الوجوه التي رسمها فأعرف الناحية التي تجوّل فيها ورسم وجوه أهلها. مرةً رأيت وجه جدّي مرسومًا بعينين جميلتين صحيحتين. ومرةً أخرى رأيت وجه المايسترو صامولة بنظرته الرهيبة فوق مع المعلم حمودة، فأدركتُ كم كان موهوبًا، وتمنيتُ أن يرسم وجهي فواظبتُ على المرور به، حتى رسم وجهي أخيرًا بأنف على هيئة ساطور، رغم أنه لم يعرف عني شيئًا فوق... أنا الذي ناديتُه، هذا اللعين الصغير.

* * *

اليوم، تحديداً، اتضح الفارق وتمايزت الألوان عما كانته منذ جئت. الآن مال الهواء البنفسجي للأرجواني الفاتح، والأرجواني للوردي الذي كثُرتْ درجاتُه وغلبتْ على مشاهدنا. كأن المخرج أمسك بالريموت واختار قائمة ضبط الألوان، وقام "بتفتيح" الشاشة. اليوم بان لي الأمر، بعد أن ظللتُ أياماً ألحظ تغيّر الألوان بتدريج لا يكاد يبين. كذلك الجذور الوليدة، اشتدت وتماسكت بعد أن اجتهدتْ أياماً لتشق سقفنا الطينيّ وتتدلى إلينا كالثريا. كان واضحًا أنها ليست جذور أشجار، فهذه نعرفها وهي تمتد على مهل دائمًا. إنها جذور نباتات صغيرة موسمية.

سألتُ عم علي الخضراتي عن ذلك فاستغرب مسألة الألوان، وأكّد أنه يرى هذه الجذور كل نهاية ربيع وبداية صيف، ثم تختفي في الشتاء، وكنت أتوقع ذلك. أما أن الألوان لم تتغير في نظره، فأمر لم أصدقْه ورجّحتُ أنه يتخابث ليصرف عن نفسه حسد عيني، لولا أن الجميع احتفوا بالجذور وذكروها في أحاديثهم المتكاثرة ولم يرد ذكر الألوان على لسان أحد منهم، فلما اختبرتُ ظني بمداورة في كلامي، ظهر أن عيونهم لم تبصر الأمر، وأن بصري الآن أحدُّ من سوّاطير جزارتي التيّ كانت.

إنها عين الروائي الذي لا يزال يكتشف إمكاناته. والحق أنني انتبهتُ لشيء من ذلك منذ تلصصت على قطتي، وكنت أرى مكانها من بعيد برغم

كثرة اللحود وتمرّج الممرات، ولم أبُحْ لك بشيء عن ذلك حتى استوثقتُ من إمكاني هذا وقويّتُه بالدُّربة على النظر والترصد.

الراءون اختفوا من المدينة، فأهلها الآن لا وقت لديهم لهذه الأمور، ومالنا نحن بالعالم فوق؟ مدينتنا الآن ملأى بالمغامرات ونوادي الثرثرة، ما أبدع أن أكون رائيًا! سأصرف أهل المدينة، أولًا، عن مقهى ابن الباشا السافل، لتذهب البت بوسي إلى الجحيم، ألم تخبرني بوضاعات أسرتي والفرحة تنطُّ من عينيْها العمشاوين؟

وسأدرّب، ثانيًا، عيني فأرى ما لا يُرى، وسأرى بعين الرؤيا، ثالثًا، زوج الأخت أسماء، فأقفو أثره، وربما أدبّر أمر إطلاعه على حال السيدة حرمه هنا، وأوقعه بالمايسترو المتحضر فيتوصل إليه أو يوصل إليه من يحقه إلى عالم الأرواح.

لكنني من أسف، لم أنلْ أمنيتي، بل تبدّدتْ رؤاي وزاغ بصري، فالشرط الأول للرائي أن يكون مهيأً للوحدة، خالي الفكر من الناس حتى تموت في نفسه كل قوة صارفة عن الرؤيا، وتصفو قواه وتتجوْهر وتفيض حتى تفارق النفس إلى موضوع الرؤيا فتكشف حجابه، وتعود بالخبر.

أما أنا فكيف أخلو من الناس؟ وكيف أصفو، بينما المايسترو الواطي يملأ حياتي كدراً؟ وكانت عيون الرجال المتحلقين حول الأخت أسماء تزداد اتساعًا وكربًا ومعاني أخرى غامضةً، حتى وفد علينا مواطن فنان، عقّدتُ عليه أملي فخيّبني. كان مسطولًا مغيبًا هنا كما كان فوق، وكانت ألحانه قليلةً، مكرورة، لا تكاد تقول شيئًا يضارع إبداعات المايسترو صامولة.

الإمكان الذي اكتشفه هنا أن يسرق أي شيء بخفة لا نظير لها. وحين سرق من الأخت أسماء سمكة ملونة، فضحه المايسترو، فكتّفه فاعلو الخير، وأعدموه بهدوء، ولم يقل أحد شيئًا، فلم يعد وقتنا يكفي للثرثرة عن القتل.

* * *

تسلّيًا أحببتُ أن أمرّ بناحية جدي، لأتفرج على جلسته الأزلية ونظرته الحولاء العجيبة. في طريقي إليه تعثرتُ بشيء ما عثرةً أقلقتْني. لم يكن على الأرض كلمات أو حروف كثيرة لأعثر بها. توقفتُ وأمعنتُ النظر... إنهما العينان الناريتان، عينا قطتي المسكونة، الرهيبتان. كانت بعيدةً لكن عينيْها تجلدانني بنظرات سرية روّعتني وسبّبت اضطرابي وعثرتي.

ثبّتُّ عينيَّ في عينيها فاشتدتا ضراوةً وتعذيبًا. ماذا كان ذلك؟ في الأمر أمرٌ، نذيرٌ لا أعرف كُنهه، فهي لم تكن تنظر إلى أحد بعينه من أهل مدينتنا، حتى الأخت أسماء. رجعتُ إلى الجذر الذي أتوسده، فهجرني النوم، وتمددتُ أنظر إلى السماء الملأى بالجذور، أفكّر وأفكّر..

في الأيام الأخيرة، دون قصد مني، أصبحتُ قبل النوم أتخيل عملية قتل محكمة بطلها أنا وضحيتها المايسترو. لم أفكر في ردع خيالاتي، فالتفكير والخيال خيرٌ لي من النوم، لأن نومي أبيض كيقظتي، لا أحلامَ فيهما ثم تكررتْ في خيالاتي فكرة ملهمة: أن أقتل المايسترو بآلته، غزًا

بالغصن أو شنقًا بالحبال، ثم انتبهتُ أننا لا يقتلنا هنا شيء من ذلك. إنما نُقتل بالنظر.

طيب، كيف يمكن أن تُسبِّب له آلتُه نظرةً قاتلةً بينما أنا في مأمن من التهمة؟

لم أتلصص على القطة المسكونة، يلزمني كثيرٌ من التدبير. حاولتُ نسيانها، اللعينة، وأكثرت من تجوالي وسياحتي في المدينة. في زاوية نائية فاجأتُ المايسترو والرقّاصة يتدربان... هذا عجيب. كنت أظن الأخت أسماء، كما كانت تذيع، يشتد بها الموج فلا يكون أمامها مفر سوى الرقص من نشوة اللحظة ودفق الموج. لم يكن يبدو عليها أن وراء رقصها هذا التدرّب والتصنّع، بإشراف المايسترو الذي يقود ويعزف ويدرّب. خفّ إليّ المايسترو المرتبك مرحّبًا، وقال إنهما يتسلّيان أحيانًا ويفرّجان عن قلبيْهما بالفن.

سريعًا، وبثقة، تلطّف المايسترو وقصدني في حاجة عاجلة: حين اندمج في العزف أبدعتْ قريحته معزوفة جديدة، ولُدتْ توًا ويخشى أن تطير من على غصن ذاكرته قبل أن يأسرها بتدوينها، كما طارت سابقاتها، فهو الآن على عتبة مرحلة النضج الفني: التأليف الموسيقي. كانت لديه قطعة من كفن جاف متصلب فقصدني في أن أعيره قلمي ريثما يحضر له صاعدٌ مُعْجَب قلمًا ونوتة موسيقية.

"بس كده يا فنان؟ يا سلام عليك" ونزعتُ قلمي المعلّق وراء أذني، وقدمتُه بأريحية شكرها المايسترو، وانصرف لتدوين العلامات الموسيقية قبل أن ترفرف في فضاء النسيان كالحشرات السمينة التي تملأ السماء الطينية فوق مدينتنا.

* * *

عُدتُ أكمل جولتي وأدرّب بصري وأمرّنه في المدينة وأهلها، وأعجب من الأخت أسماء، كم فتحت عيونهم ورسمت لهم الأحلام! أرى ذلك في مقايضاتهم لأجلها وتصارعهم عليها وحواديتهم عنها، فماذا إذن لو كانت لهم فتحات؟! اللعنة على الأحلام.

ولأن مَعازل الثرثرة تعمل الآن ليل نهار، صار نسيج الحكايات يقوى ويتلوّن، وتدرب أهل المدينة أن يراوحوا بين حكاية وحكاية، ومكان ومكان، حتى تتوزع الكلمات على شتى الأماكن فلا تخنق أحداً، وأصبحنا أحياناً نكمل أو نعدّل حكاياتنا من الحكايات المتدفقة على الأرض، إذا كانت أبدع حكيًا أو أشد إثارة أو أغنى تفصيلًا. . سيكون صيغًا ما أجمله.

هذا الانفتاح الثقافي فتح عينيَّ على أساطيرنا التي لم أسمع بها منذ جئتُ. وكانت أساطيرنا هذه تنزاح إلى أطراف ذاكرتنا لتحتل أساطير الأخت أسماء مركزها، هكذا التقطتُ خيوطًا من حكاية حارس المقبرة، الذي طالما اعتبروه عمدة المدينة. لا يذكر أحدٌ بداية لتاريخه مع المقبرة. الآباء المؤسسون تحدثوا عنه تلميحًا وبجَلوه، مع أنهم أقدم منه بزمان طويل.

يألفه الصاعدون جميعًا ويحبونه، فهو الكائن الوحيد في العالم الفوقاني الذي ينظرهم فلا تقتلهم نظرته. ثم إنه يسمع الكثير من أهل المدينة، فوق، عن اختفاء أسماك وسرقة قوارب وشباك صيد فلا يبوح بحرف ولا بنظرة تنم علينا. بل كان يرأف بهم علي الخضراتي حيّن كان يؤسس فرشته، فصار يترك له بعض الخضروات البائتة حين رأى أنه لا يصعد إلا ليجمع أصنافها.

الصاعدون يضحكون ويتندّرون على ذهوله منذ رآهم يتزايدون ويجتهدون ويتنافسون في جمع ما تطوله أيديهم من أشياءَ بحرية، وأصبح يسهر أكثر الليل يتأمل غنائمهم، ثم رأوه مرةً ينزل بعصا إلىَ قبر فتحه أصحابه لتنظيفه قبل دفن ميتهم، وقد راح يغرس العصا في التراب بحركة دائرية، ويخرجها ويدقق النظر في طرفها المغروس ويتحسسه ليختبر إن كان مبلولًا أم لا. الرجل الطيب بلغ به الظن أن بحرًا تفجّر في مدينتنا ههههه.

بغتةً انقطعت قهقهة الصاعدين، وغشيني ضباب محيط. فقد انهمر عليّ أهل المدينة طوفانَ حقد وغضب، رأيتُ الوجوه المرصوصة الغاضبة ملتاعًا ضائعًا، لم يمنحوني وقتًا لأسأل، خرجوا بي سحلًا وركلًا إلى الساحة، أرى من منظور أرضي وجوههم عاليةً قاسيةً كرؤوس الجبال، البت بوسي، ابن الباشا السافل، جدي الذي لا يعلم شيئًا عن المدينة، عم علي الخضراتي الذي تزحزح عن فرشته، لم يكن غاضبًا ولا عدوًا، بل كان خروفًا يجري إلى حيث يجري القطيع.

في الساحة كان الآباء المؤسسون والأم الكبيرة وسائر أهل المدينة ينادوْن بقتلي شر قتلة.

كان المايسترو صامولة يتوسط الحشد والأخت أسماء ممددةً على ظهرها ترتعش وتئن أنينًا متصلًا. المايسترو كان يرفع قلمي ليراه الجميع مكسورَ الطرف، أشار إليَّ باكيًا، فالجميع رأوني مرارًا أسير معلقًا قلمي خلف أذني. الأخت أسماء دون أن تقطع أنينَها، رفعت رأسها وأشارتْ إليّ..

هكذا ثبتت عليّ التهمة التي عرفتُها حين وقع بصري على جسدها، كانت فاتحةً ساقيْها، وكان أثرٌ غريبٌ قد حُفر ما بين الساقين، وطرفُ القلم مكسورٌ حيث استعان به الفاعل، الذي أعرفه قطعًا، المايسترو القواد أخذ مني قلمي دون أن يراه أحد، وحاول به أن يفتحَ فتحةً في جسد رقّاصته، ليكتمل سحرُها فيزدهر عملُه الذي كان في أتم ازدهار أصلًا.

لم يُصدر أحدٌ حكمًا عليَّ، فالحكم بإعدامي صدر دون أن ينطقه واحد بعينه. ولولا أن الوقت نهارٌ لكانوا قد كتّفوني وصعدوا بي لبرموني على مدخل السوق. إنه نهاري الأخير في هذه المدينة، ولما كان الضربُ لا يكاد يؤثر في أجسادنا، فقد تركوني مكوّمًا بينهم في انتظار الليل. رحتُ أنظر إليهم لأعبر هذا النهارَ الأخيرَ أخف عبور وأهونه.

* * *

كم صار أهل المدينة رجالًا الآن! وكم صاروا هائجين! وهذا الأثر بين ساقيْها ما أبسطه وأضعفه! ثم ما هذه الضجة كلها لأجل أثر لا يكاد يبين؟ وماذا كان يضرهما لو أنهما تستّرا على فشل الأمر، فمضى كأن لم يكن؟ كان يضرهما ألا يمكنهما حشد هؤلاء الثائرين كلهم وإحياء فحولتهم الميتة.

بدأتُ أهدأ وأنتظر.. إنني أُقتل لتحدث فُرجة مدفوعة الأجر.. فرجة أمام قسم الشرطة فوق وفُرجة في ساحة المدينة هنا. ثم كان القتل بعد الفرجتيْن تطهيرًا للمرأتين: الفتاة ذات الذقن المدبب فوق والأخت أسماء هنا. وأنا من عُمْرٍ إلى عُمْرٍ أجتهد في تخليص حقي من هؤلاء جميعًا. هذا هو معنى حياتي.

مع قرب الليل، اتسعت دائرة الحريق، تجددت الفتنة بين أنصار البرتقالة من نساء المدينة، وأنصار النجمة الجديدة من رجالها، هجم هؤلاء على البرتقالة المطمئنة في سمائنا، خطفوها، ثم عصروها ودلقوا عصيرها على الأرض، فولولت النساء وشتمن وجمجمن. إنها معارك يزدهر بها البصر ويهنأ القلب لو لم يكن الموت يُكمل دائرته حولي. كنت قد تشوّقتُ

للصعود ورؤية الحارس ومعاينة أحواله. بعد قليل سيحين صعودي الأول والأخير.

إنها الليلة الأولى التي تحل على المدينة فلا يُنزلون برتقالتها. الرجال يعلقون "نجمة أسماء" مكانها، ليُنزلها الصاعدون، مصونةً، عند الفجر، فيعرف أهل المدينة أن النهار قد طلع. النساء يجمعن الحجارة ليرجمن "نجمة أسماء" حتى تتفتّت، وبعضهن يخططن ليسرقن الليلةَ ثمرة مانجو صفراء بدلًا من البرتقالة، إلى أن يحين قطافُ البرتقال في الشتاء القادم.

حلّ بي هدوء غريب، ورفرف طيرٌ في سماء عقلي قَصَفا، فذكّرتُ أهل المدينة أنه ما من معدوم يُعدم إلا بعد أن يُسأل حاجته، فوافقوني، فناديتُ على مثقف منهم وأوصيته أنْ يكملَ نَسْخَ روايتي من الشّيش المعبأة بالكلمات، التي لم أنته من نَسْخها، وأن يرتبَ فصولها ويراجعها، ثم يكتب على غلافها الجملة التي ذكر الفاشل مرةً أنها تُكتب على أغلفة المؤلفين الكبار. "جملة إيه يا ابني؟" سألني. "بستْ مش عارف إيه كده" أجبتُ عاصرًا ذاكرتي كالليمونة، وكنت أتذكر هذه الكلمة تحديدًا لأنها اسم شركة عصير مشهورة. "آه.. قصدك بست سيلر" وانفجر ضاحكًا، ووعدني.

كتّفوني، صعدوا بي وقد حل الظلام. غمرني صفاءٌ أبديٌ حتى فاض عنّي. وفي لحظة خروجي من القبر المهجور رفعت بصري إلى نجوم الصيف وتخيرتُ منها نجمة صغيرة لطيفة الألق، لأحملها، بعد إعدامي وانتقالي إلى

عالم الأرواح، وأنزلَ بها إلى رجال المدينة الذين لن يترددوا في تكتيف المايسترو وتسليمه لي، ليهرولوا نازلين بالنجمة فيعوّضَوا بها الأخت أسماء عن نجمتها الأولى، التي حطّمتْها نساء المدينة، بعد أنْ أصبحن نساءً، رجمًا بالحجارة.

سبتمبر ٢٠١٣

في المساحة الضيّقة للغاية بين الواقع والخيال، بين اليقيني والأسطوري، يقتفي "عمر حاذق" خطوات "ميلتون" في "الفردوس المفقود"، و"نجيب محفوظ" في "أمام العرش"، و"أبي العلاء المعرّي" في "رسالة الغفران"، و"مصطفى محمود" في "زيارة للجنة والنار"، و"دانتي الليجري" في "الكوميديا الإلهية"، و"يوسف السباعي" في "نائب عزرائيل"، لكن وفقًا لكتالوج مصري خالص، ولغة شعبيّة حيّة، ورؤية فلسفية تحاول إعادة تفسير الكثير من المسلّمات، ورسم تصور فانتازي لما بعد الموت.

روائي المدينة الأول محاولة جريئة، تُعيد تقديم العالم والشخوص والنزوات وجوهر الصراع الإنساني ودور "الشهوة" في قيادة المجتمعات، بشكل مغاير للمألوف، ومباغت، يتيح إعادة تأمّل الكثير من الفرضيات المسبقة، واتخاذ موقف واعٍ يتخطّى الحِكَم المُعلّبة، والتصوّرات سابقة التجهيز، والسلطة الأبوية، التي تُفرض علينا بمجرد وصولنا للحياة.

روائي المدينة الأول ، ليست رواية قصيرة نرشح لك قراءتها، وإنما "تجربة" ينبغي لك أن تعيشها.

الناشر

وُلِدَ عمر حاذق في الكويت، عام 1978، تخرّج في كلّية الآداب، قسم اللغة العربية، عام 2000، صدر له ديوان "أصدّق شمس الشتاء" عن دار أراييسك، عام 2009، بالإضافة لكراسة شعرية، بالتعاون مع آخرين، تحمل عنوان "نوتا ... فضاءات الحرية"، في عام 2011. صدرت روايته الأولى "لا أحب هذه المدينة"، عام 2014، وعمل محررًا ومراجعًا لغويًا، لدى العديد من دور النشر، وحاز الكثير من التكريمات العربية والدولية.